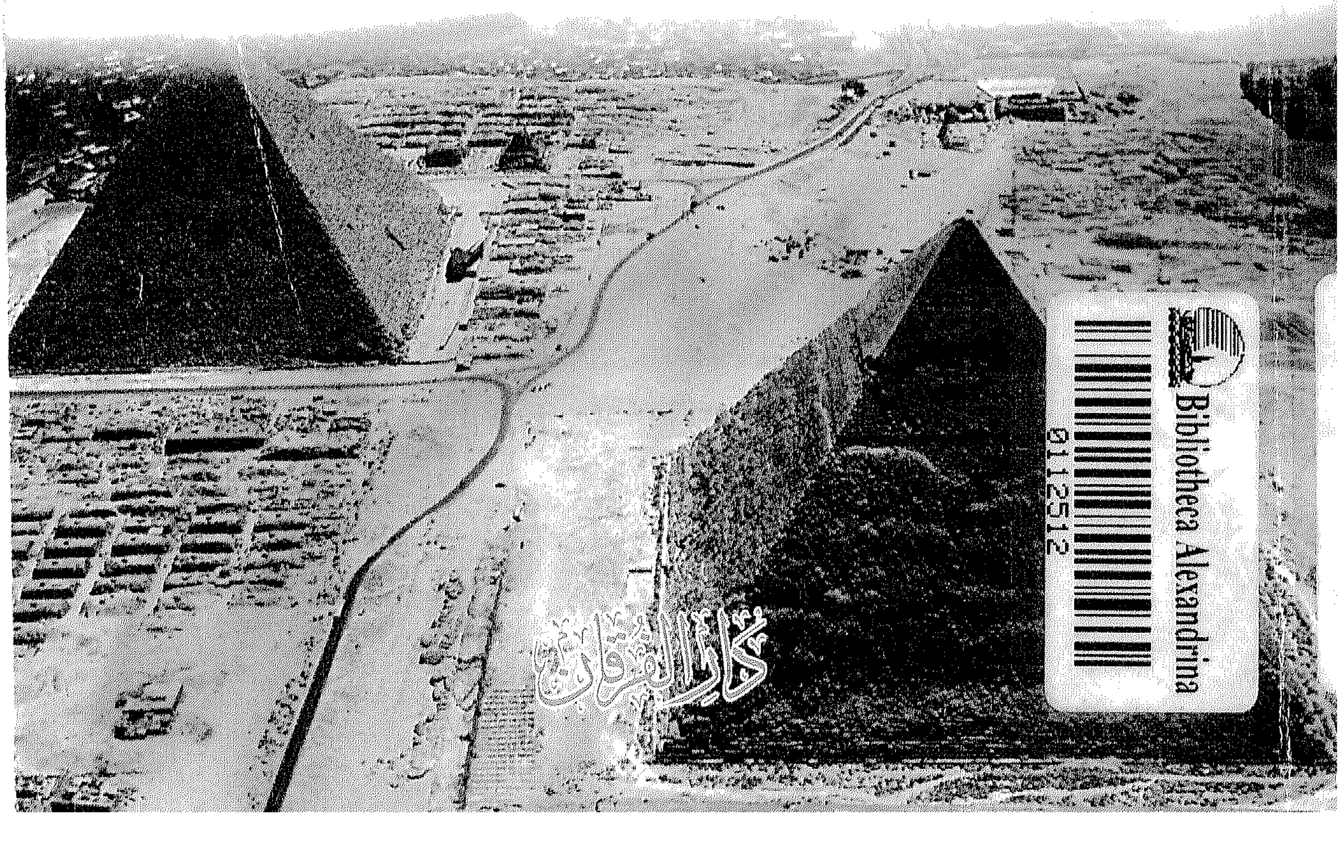
في ظلال القرآن الكريم

إن فرعون علا في الأرض

الدكتور محمد أبو فارس



دار الفرقان

إن فرعون علا في الأرض

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

****

رقم التصنيف : ٨١ر٢١١

المؤلف ومن هو في حكمه : محمد ابو فارس

عنوان الكتاب : ان فرعون علا في الارض

الموضوع الرئيسي : ١ـ الديانات

: ٢ـ الدين الاسلامي ـ القرآن الكريم ـ قصص

رقم الإيداع : (٤٥/ ١/ ١٩٩٨)

بيانات النشر :

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر(٢٦/ ١/ ١٩٩٨)

في ظلال القرآن الكريم

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ

بقلم
الدكتور محمد أبوفارس

دار الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿فأُلقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى. قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلّبنكم في جذوع النخل ولتعلمنّ أينا أشد عذاباً وأبقى. قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾.

[سورة طه: ٧٠ – ٧٢]

الإهداء

إلى المستعبدين الرازحين تحت نير الطواغيت المستكبرين.

إلى الذين آمنوا بفكرتهم ونذروا أنفسهم لنشرها في كل مكان.

إلى الذين عرفوا تكاليف التحرير فوطنوا النفس على البذل حتى التحرير والتغيير.

أهدي كتابي هذا

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولن تجد له من دون الله ولياً مرشداً.

ثم أما بعد،

فإن الذي يقرأ كتاب الله تبارك وتعالى يجد أنه حوى بين دفتيه كثيراً من قصص الرسل، وما واجهوا من عنت ومشقة، في رحلتهم الدعوية.

ولقد انقدح في روعي أن سرد هذا القصص في القرآن جاء يحقق فوائد جمة، وحكماً جليلة. وأنه ينبغي على الداعية الذي يتعامل مع القرآن أن يتأمل هذا القصص القرآني. وأن يستخلص منه هذه الفوائد والحكم، ويغوص فيستنبط من نصوص قصصه العبر والدروس.

ولقد تفضل الله تبارك وتعالى على عباده والدعاة إلى دينه بأن فقههم في الدين، وأعانهم على استنباط الدروس العديدة والمسائل المفيدة من هذا القرآن الكريم.

إن الداعية المسلم وهو يتعامل مع هذا القصص القرآني وبخاصة قصص الرسل مع الطواغيت، والرسل ومحبيهم وأتباعهم يضع يديه على فوائد عظيمة ودروس مفيدة. يستفيد منها وهو يمارس الدعوة إلى الله، ويواجه ظروفاً تشبه تلك الظروف.

إن الله تبارك وتعالى بين لنا في كتابه أن القصص يقصها على الناس ليتفكروا فيها، ويتدبروها ويستخلصوا بعد ذلك العظة أو العظات والحكم والأحكام، قال تعالى: ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

بل إن القرآن بيّن أن الذي يعتبر بهذا القصص هو صاحب العقل الكبير، والفهم الراجح، والرأي الصائب. قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

وقصة موسى – عليه السلام والطاغية – فرعون لعنه الله لعنة متصلة إلى يوم الدين – قد أكثر القرآن من ذكرها في سور عديدة، يوجز أحياناً ويسهب أحياناً ويقدم أدق المعلومات في هذه القصة. وقد ذكرت هذه القصة في نيف وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم.

وإننا نحسب أن عرض هذه القصة في نيف وثلاثين سورة من سور القرآن، يوحي باهتمام القرآن بهذه القصة. لما فيها من حكم وعبر وعظات وفوائد.

ولقد تعاملت هذه القصة تلاوة وتدبراً وفهماً واستنباطاً للعبر والدروس والحكم والأحكام، واستقر في قلبي أن هذه القصة قد وضحت بشكل لا يقبل اللبس أموراً منها:

– طبيعة طريق الدعوات طريق مفروش بالأشواك ومملوء بالدماء والآلام.

– عصمة الله رسله وحمايتهم من أعدائهم في الغالب حتى يبلغوا دعوتهم للناس.

– التسرية عن المؤمنين وهم يواجهون العنت والمشقة بأن ما يعانون منه عانى منه جميع الرسل.

– النتيجة في النهاية للرسل واتباعهم حيث النصر والتمكين.

– رفع الروح المعنوية عند الدعاة وتثبيتهم حين يطلعهم الله على هزيمة الكافرين ونصرة عباده المؤمنين.

– الله يؤيد رسله بالمعجزات الخارقة والبراهين الساطعة على صدق رسالتهم.

– طبيعة نفس الطاغوت عدوانية.

– الهوى يعمي ويصم الطواغيت عن سماع الحق ورؤيته.

إن مما يجدر الإشارة إليه وذكره في هذا المقام، أننا لم نكتف بذكر أحداث القصة؛ بل عرضنا كل حدث وحللناه واستنبطنا منه درساً أو أكثر. وحاولنا أن نوازن بين هذه الدروس. وبين الواقع الذي يعيشه الناس في عالمنا العربي والإسلامي والغربي الصليبي والعلماني الإلحادي. وكنا نشير إلى بعض أمراض الشعوب في المنطقة، ومدى مشابهة هذه الأمراض إلى أمراض قوم فرعون.

لقد ضمّنّا ما استنبطناه من دروس وحكم وعبر في كتابنا هذا، واخترنا أن يكون عنوانه جزءاً من آية من كتاب الله تعالى: ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾ هي الحقيقة الفرعونية كما قررها القرآن الكريم. حقيقة العلو والاستكبار وسفك الدماء وتقتيل الأطفال الذين لا حول لهم ولا طول.

ولقد رأينا أن كثيراً مما جرى في عهد الطاغية فرعون، يتكرر في عهد فراعنة القرن العشرين. سواء كان في الأسلوب أو الموقف، ولاحظنا أيضاً أن ما حدث من خنوع أمام فرعون مصر قديماً يتكرر في بلاد العرب والمسلمين، فنجد خنوعاً أشد وجبناً آكد مما كان عليه الشعب المصري المقهور والمظلوم المستعبد.

وانني أرجو أن أكون قد قدمت دراسة مفيدة يستفيد منها الدعاة، وهم يواجهون طواغيت الأرض في عالمهم المعاصر. فيتعلمون من موسى – عليه السلام – التصدي لفرعون، والثبات على المبدأ، والاعتماد على الله. ويتعلمون من مؤمن آل فرعون، الدفاع عن المؤمنين بظاهر الغيب وقوة الحجاج والترقي فيه، والمفاصلة والتميز في الصفات والمواقف.

وإنني قبل أن أضع اليراع ألهج إلى الله بالثناء والرجاء أن يتقبل مني جهدي هذا، وأن يرزقني الاخلاص في كل جهد أبذله، وأن يعيننا أن نقف مواقف موسى – عليه السلام – ومواقف مؤمن آل فرعون ومواقف الذين آمنوا مع موسى وهارون – عليهما السلام – فاستعذبوا الموت في سبيل دينهم.

وأريد أن أهمس في أذن القارئ الكريم، الذي تربطني به صلة الاسلام، وأخوة

الإيمان، والعمل لدين الله. أن الجهد البشري كثير النقص، كثير الخلل، فإنه لا عصمة لغير الرسل من البشر. ومن ثم فألتمس منه إن وقع بصره على نقص أو خلل أن يبادر على الفور بتقديم نصيحته لي، وملاحظاته ونقده وتوجيهاته، فإن المؤمن مرآة أخيه. ولا أملك أن أكافئه إلاّ أن أدعو له بما علمني إياه رسول الله ﷺ فأقول له: جزاك الله عني خيراً.

سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت استغفرك وأتوب إليك.

صويلح في ٣ جمادى الأولى/ ١٤١٧هـ

١٦/٩/١٩٩٦م

المقالة الأولى
من السياسة الفرعونية في الحكم: فرق تسد

إن القرآن الكريم يخبرنا أن فرعون موسى علا في الأرض. وكان لهذا العلو مظاهر منها ادعاء الألوهية، حين قال للمصريين ﴿**ما علمت لكم من إلهٍ غيري**﴾[القصص: ٣٨]. وقال لموسى مهدداً أو متوعداً: ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]. ﴿**فقال أنا ربكُّمُ الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤].

ومنها استعباد الناس وظلمهم، وقتل الأطفال حفاظاً على حياته ونظامه الطاغوتي، ومنها تسخير الناس لبناء قبر يقال له الهرم مات فيه نحو مليون مصري.

ومنها أنه الوحيد الذي يفهم وما ينطق إلاّ بكلمة الحق والصواب، وغيره أمام فهمه ورأيه لا وزن له. فهو يقول للشعب المصري المظلوم: ﴿**ما أُريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾[غافر: ٢٩].

كل هذا تم وزيادة يوم أن أوجد المتناقضات بين شعبه، وقسمه إلى فئات وطبقات، يقرب طائفة، ويبعد أخرى. وينعم على طائفة وينقم على أخرى. ويوجد التناحر بين هذه الفئات حتى يشغلها عن ظلمه وفسقه وفجوره، تأمل قوله تعالى: ﴿**إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾ [القصص: ٤]. هذا هو الإفساد بين الناس، بالفتنة والتقتيل وإبقاء النساء أكثر من الذكور. ليشيع الفساد الأخلاقي.

وهذا أسلوب يستخدمه الفراعنة في كل زمان ومكان. وبخاصة إذا علمنا أن فرعون ليس اسم حاكم من الحكام ولا فرد من الأفراد، وإنما كلمة فرعون صفة مأخوذه من الفعل فرعن، وفرعن تعني طغى وبغى وتجبّر وظلم.

وعلى هذا، ما أكثر الفراعنة في أيامنا هذه، ما أكثر الطغاة والجبابرة والظلمة، ما أكثر الذين يعيشون على المتناقضات.

لقد عاشت هذه الأمة في تناقضات أشغلها أعداؤها بها عن حقوقها وعن أوطانها، وفرقوها ومزقوا وحدتها حتى لا تقوى على مقاومة أعدائها وتحرير أرضها، وتحرير ما استعبد من أبنائها، وما اغتصب من أرضها.

يخبرنا التاريخ أن لورنس القائد الانجليزي الخبيث حليف العرب ضد الأتراك المسلمين، غاظه أن يرى الأمة الاسلامية متوحدة يجمعها رباط العقيدة، ففكر وقدر، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أضله شيطانه إلى اختيار شعار القومية العربية، وقد اختار الأتراك القومية الطورانية لتتمزق هذه الوحدة، ويسهل القضاء على الدولة العثمانية التي تجمع الأمة على الاسلام. فكان له ذلك.

ولما استعصى المجاهدون في أندونيسيا على الاستعمار الهولندي، ارسلت هولندا مبشراً اسمه جان لوك إلى مملكة أتشيه عرين المجاهدين، ليدرس أسباب فشل الاستعمار الهولندي في ترويض سكان هذه المملكة المجاهدين، واستقر فيها بضع سنين، وقدم دراسة لحكومة هولندا موجزها: إن المجاهدين متحدون وأقوياء لا تستطيع حكومة هولندا القضاء عليهم بالقوة واقترح اقتراحين: الأول: إثارة النعرات القومية والعرقية. الثاني: إنشاء الحزب الشيوعي.

ولقد استجابت الحكومة الهولندية إلى رأيه، فأرسلت مهندساً من هولندا فأسس الحزب الشيوعي هناك الذي اشغل المجاهدين بطرح الأفكار الشيوعية الالحادية لاشغال المجاهدين بالرد عليها. واشغال الناس والهائهم عن التعاون مع المجاهدين.

وأثارت النعرات بين المجاهدين، واستطاعت أن تقرب فئة وأن تباعد فئة أخرى، فانقسم المجاهدون على أنفسهم، وما هي إلاّ سنوات قليلة جداً حتى حمل المجاهدون السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، ودب النزاع بين قلوبهم قبل ذلك. فقضوا على أنفسهم بأنفسهم، واستقرت بعد ذلك مملكة اتشيه سنة ١٩٠٤ للاستعمار الهولندي.

وهكذا سلك الاستعمار الانجليزي والاستعمار الفرنسي والاستعمار الايطالي سياسة فرق تسد، ثم سلك سننهم عملاؤهم من المسئولين في بلاد المسلمين، فخضعوا لتقسيماتهم الجغرافية، واستجابوا لأفكارهم الغازية القائمة على سياسة ثابتة هي (فرق تسد).

وإن ما نراه في بلاد المسلمين من تقسيمات للوطن وللناس، ونسبة الناس إلى الأرض والاقليم دون نسبتهم إلى الاسلام والعقيدة والدين إلاّ تنفيذاً لهذه السياسة الفرعونية سواء كانت سياسة فرعونية في عهد موسى أو قبل عهده أو بعد عهده، وسواء كانت في عهود الاستعمار البغيض أو على أيدي تلامذة مناهج الاستعمار جميعاً في بلاد المسلمين.

فالتعصب من القاطن في سوريا إلى سوريته، والأردني إلى أردنيته، والمصري إلى مصريته، والأفغاني إلى أفغانيته، والسوداني إلى سودانيته، والجزائري إلى الجزأرة، والتونسي إلى التونسة، والأردني إلى الأردنة، والمصري إلى المصرنة، واللبناني إلى اللبننة، والسعودي إلى السعدنة، والعماني إلى عمانيته، وسلطنته، والقطري إلى التقطير والقطرنة، واليمني إلى يمنه، والبحريني إلى بحرانيته، والكويتي إلى التكويت والكوتنة، والفلسطيني إلى فلسطينيته، تنفيذ للسياسة الفرعونية سواء كانت فرعونية استعمارية أو عربية أو أعجمية. وهذه الفرعونية هي التي كانت سبباً في احتلال الأوطان واستعباد الانسان. ولا زالت تصادر حرية الانسان وتئد كرامته وعزته.

المقالة الثانية

الظالم يتوجس خيفة من ثورة المظلومين فيبطش بهم

في الحلقة الماضية، ذكرنا بعض مظاهر علوه في الأرض، ومن هذه المظاهر أنه قرر أن يقتل الذكور من قوم موسى – عليه السلام – ويبقى النساء بلا أزواج ولا أولاد. قال تعالى: ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾[القصص: ٤].

وتذكر كتب التفسير أسباباً لهذه الجريمة البشعة التي يقنن لها الملك الطاغية فرعون. ومن هذه الأسباب أن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من هؤلاء الذين يستضعفهم.

وهذا السبب غير مقبول شرعاً وعقلاً: إذ أن هذا الأمر غيبي ولا يعلم الغيب إلاّ الله، والمؤمن يحرم عليه أن يصدق هؤلاء المنجمين.

وإن استجاب فرعون لتنجيم هؤلاء الكهنة فإنه يدل على حمقه كما قال الزجاج رحمه الله: والعجب من حمق فرعون. فإن كان الكاهن الذي أخبره بذلك صادقاً فما ينفع القتل. وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل.

وأقوى الأسباب في نظري للإقبال على هذه الجريمة وممارستها بوحشية، هو أن فرعون الطاغية كان يظلم الناس، ويستعبدهم ويقهرهم ويذلهم، ويسخرهم لخدمته وطاعته وفق هواه ومزاجه مما يولد عند هذا الشعب المقهور شعوراً بالظلم. وهذا الظلم يتنامى يوماً بعد يوم، وكذلك الشعور به يتعمق ويتنامى ويزداد، وفي النهاية المحتومة أن يقوم من بين هذا الشعب المستعبد من يتمرد على هذا الظلم وصاحبه، وأن يمرد غيره معه كذلك، وفي النهاية يطيح بعرش فرعون ونظام فرعون الظالم، وبسدنة هذا النظام وكبرائه ووزرائه.

نعم لقد كان هذا التخوف من فرعون وملأ فرعون حين قالوا: ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وقد سموا بالملأ لأنهم يملأون قلوب الناس خوفاً وذعراً وهلعاً وجزعاً، لأنهم يملكون أسباب القهر والغلبة والتعذيب وإلحاق الأذى بمخالفيهم وإرهاقهم، واذاقتهم من صنوف العنت والمشقة ما يجعل الولدان شيباً.

وهذا السبب ليس محصوراً ولا مقصوراً على فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام – ولكنه يجري في دم كل طاغية، ويتغلغل في شغاف قلب كل ظالم عاتية جبار. همه الوحيد أن يبقى على كرسي الحكم والسيادة. والناس تخضع لجبروته. وتركع لعبادته دون سواه، وتقول بقوله وتلغي عقولها التي كرمها الله بها – فجعلها مناط التكليف ومناط تقرير مصير أصحابها في الدنيا والآخرة.

لقد قال فرعون للمصريين المسخرين المستعبدين حين حاول بعضهم أن يفكر بعقله وأن يكون له رأي: ﴿**ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩].

لقد رأينا حكاماً في بلاد العرب والمسلمين يحكمون شعوبهم حكماً فرعونياً، حكماً بالحديد والنار، وسلكوا من سياسة الترويض مع شعوبهم حتى أيقنوا أنهم روضوهم. وحينما ظهرت الحركة الاسلامية تدعو إلى استئناف الحياة الاسلامية وتحرير العالم الاسلامي من كل نير أجنبي. وقتال اليهود الغاصبين، وتحرير الأوطان والانسان وقامت حماس، وكتائب الشيخ عز الدين القسام تصلى بأوار نارها فراعنة القرن العشرين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

هبّت الأنظمة الجاهلية بكل سدنتها تطارد الدعاة إلى الله في كل مكان وبخاصة المجاهدين الذين عروا هذه الأنظمة وأظهروا حقيقتها، كما عرى موسى عليه السلام فرعون وأظهر حقيقته بوضوح.

إن هذه الأنظمة قامت بهذا وتقوم به لأنها تخشى ما كان يخشاه فرعون. من أن تستيقظ هذه الشعوب من سباتها، وأن تصحو من غفوتها، وتنطلق لتحرير

أوطانها وانسانها ومقدساتها، فصبت جام غضبها على الذين حملوا مشعل الهداية والنور والتحرير، تتخذ من وسائل الوقاية ما يبقي الأوضاع الآسنة المتخلفة على ما هي عليه. ولكن أنّى لها ذلك، فإن سنة الله ماضية في نصر من ينصره وخذلان من يخذله، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

المقالة الثالثة

فاستخف قومه فأطاعوه

إن القرآن يخبرنا عن فرعون مصر في عهد موسى – عليه السلام – أنه استعبد الشعب المصري وتأله عليهم فقال لهم: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ [القصص: ٣٨].

وقال أيضا بعد أن جمع القوم: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤] وقال للمصريين: ﴿**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين**﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢].

ولقد صادر عقول المصريين وأفهامهم واعتبر نفسه الوحيد الذي ينطق بالحقيقة والهداية والرشد، وما سواه سفيها لا يؤبه لقوله. ولا يسمع لرأيه، لأنه لا رأي إلاّ رأيه ولا صواب إلاّ ما ينطق به، قال تعالى حاكياً قوله: ﴿**قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩].

والسؤال الذي يطرح نفسه ما الذي جرأ فرعون على احتكار الحقيقة؟

وما الذي جرأه على استعباد الشعب؟

وما الذي جرأه على ادعاء الألوهية؟

وما الذي جرأه على ادعاء الربوبية؟

إن القرآن الكريم قد ذكر ذلك بوضوح الذي جرأه فقال: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد نظر فرعون إلى الشعب فوجده خائفاً ذليلاً، ليس من بينهم رجل رشيد، وليس فيهم رجل جريء ينطق بالحق ويتفوه بالصدق، ليس من بينهم من يرفض ألوهيته المزيفة، ولا يقاوم استكباره هو وحاشيته ورجال قصره الذين أذلوا الناس وسخروهم لمصالحهم وجعلوهم خدماً لهم.

تأمل قوله تعالى: فاستخف قومه. وجدهم لا وزن لهم، لا وزن لعقولهم، لا وزن لرجولتهم، فهم ليسوا رجالاً في نظره، لأن الرجال لايستخفون. ولا يقبلون لأنفسهم أن يستخفهم أحد. وبالرغم من هذا الاستفزاز في الخطاب والمعاملة السيئة سلموا له بما يقول، وأطاعوه في كل ما يأمر.حقاً إنه لا يطغى فرد في أمة رشيدة، ولا في شعب رشيد، وإنما يطغى ويفجر في أمة سفيهة، وشعب سفيه سفاهة الفسق والفجور.

والسفه في اللغة هو الضعف. سواء كان ضعفاً في العقل أو الفهم أو الإرادة أو المروءة. والسفه الخفة، والخفة في العقل ضعفه، والخفة في التصرف، ضعف التصرف، والسفيه الأحمق.

حقاً إنهم ما أطاعوه فيما يقول ويأمر إلاّ لأنهم ضعاف مهازيل، ضعاف في عقولهم، ضعاف في إرادتهم، ضعاف في رجولتهم، ضعاف في نخوتهم، ضعاف في غيرتهم على أعراضهم ودمائهم.

وإذا علمنا أن فرعون ليس اسماً لحاكم مصر، وإنما هو اسم صفة لكل حاكم يتجبر في الناس ويطغى فيهم. فما أكثر الفراعنة في بلاد المسلمين، وما أكثر الفراعنة في أيامنا هذه.

إن فراعنة القرن العشرين قد طغوا وبغوا وأذلوا شعوبهم وصادروا حرياتهم، وباعوهم في سوق النخاسة الدولية بأبخس الأثمان.

وما كان للفراعنة في القرن العشرين أن يفعلوا بالناس هذه الأفعال الشنيعة من مصادرة حرياتهم، والتنازل عن أوطانهم، وإبعاد شريعتهم عن واقع الحياة، واستيراد شرائع لم يأذن بها الله ولا رسوله ولا صالح المؤمنين إلاّ يوم أن استخفوا بشعوبهم بعد أن أوصلوها إلى ما هي عليه من السفه.

إن فراعنة القرن العشرين لا يطغون إلاّ في شعوب سفيهة، شعوب مستضعفة شعوب شربت كأس الذل والمهانة حتى الثمالة.

ولكن الشعوب لا تبقى على حالها، وإنما يقيض الله لها من يبصرها بحالها، وأحوال الفراعنة الذين يحكمونها بالحديد والنار، فتستيقظ من سباتها العميق، وتنهض من كبوتها، وتمزق قيودها وتهجر فسقها، وتستأنف رجولتها ومروءتها وكرامتها، وتحرر إرادتها ومن ثم تقضي على فراعنتها. قال تعالى: ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ [الروم: ٤٧].

المقالة الرابعة
الطاغية يطارد المصلحين

لقد أدرك موسى – عليه السلام – خطورة المؤامرة الفرعونية التي شارك فيها الكبراء والأمراء والوزراء والأعيان، وهذه المؤامرة تستهدف حياته عليه السلام، والتخلص منه باعتباره قائداً شعبياً، قد أوتي الحكمة في الفهم والعقل والتصرف. وهو يدعو إلى التحرير والتغيير. إذ شعر بظلم فرعون وأعمدة الحكم وأقطابه. وقد نذر نفسه في مقاومة الظلم والظالمين، داعياً إلى أن ترد الحاكمية إلى الله تبارك وتعالى. وتنتزع من فرعون والملأ من قوم فرعون.

لقد جاء هذا الرجل من آل فرعون ينصحه بالخروج فوراً من هذه البلدة الظالم حكامها، فخرج موسى عليه السلام خائفاً على نفسه من فرعون وزبانيته مترقباً إدراكه واللحوق به في أي لحظة والإمساك به وقتله.

تأمل كيف يفعل الطواغيت الفراعنة بالأشراف. أنه القتل أو ترك الأوطان. وهجرها وهجر الأهل معها من أم وأخوة وأقارب وأرحام، وهذا أمر يصعب على نفس الرجل المؤمن. ولكن لا بد مما ليس منه بد. وأمام تكالب قوى الشر لجأ إلى الرب تبارك وتعالى، مفرج الكرب، وكاشف الغمة، لجأ إليه بقلب ضارع يدعوه. سائلاً النجاة من مؤامرة المتآمرين، فهو وحده القادر على عصمته من الناس. قال تعالى: ﴿**ربِّ نجني من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢١].

وبعد الدعاء أخذ بالأسباب فتوجه إلى أرض مدين بالشام، وسلك طريقاً لم يكن يسلكه من قبل فهو بحاجة إلى من يهديه الطريق الموصل إلى أرض مدين. فكان الهادي هو الله تبارك وتعالى.

ولقد استجاب الله دعاءه، فكشف عنه الغمة، وفرج كربته، وأوصله سالماً إلى

أرض مدين حيث لا تقع هذه الأرض تحت حكم فراعنة مصر الظلمة القتلة الكفرة الفجرة.

ومما يجدر ذكره أن موسى عليه السلام قد تضرع إلى الله بهذا الدعاء قبل زواجه وقبل تكليفه بالرسالة. فمن أين اكتسب علم التوحيد واللجوء إلى الله؟.

إن مما لا شك فيه، أن هذا الإيمان قد تناقله الناس جيلاً بعد جيل من ديانة يوسف عليه السلام ووالده يعقوب حيث حكم مصر قبل ذلك.

لقد وصل موسى – عليه السلام – إلى أرض مدين ثم نزل ضيفاً على الرجل الصالح في هذه الأرض فعرفه على نفسه، وقص عليه قصته. وذكر له رحلته، وأخبره أنه مطارد مطلوب دمه. فما كان من الرجل الصالح إلاّ أن أزال خوفه. وطمأنه على نفسه، قائلاً: ﴿**لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢٥].

وكأن موسى – عليه السلام – يلازمه الشعور بمطاردة المخابرات الفرعونية، ويتوقع أن تقبض عليه في أي لحظة. لقد بدَّد الرجل الصالح هذا الخوف وهذا التوقع فطمأنه إلى أنه في بلاد لا تخضع لدائرة المخابرات الفرعونية، ولا تخضع لسلطان فراعنة مصر. فهو حر طليق الحركة. أمين على نفسه ودمه وكسبه.

أخي القاريء الكريم

أرأيت كيف يفعل الفراعنة بالأتقياء المصلحين؟

أرأيت كيف يطارد ورثة الأنبياء؟

أرأيت كيف يغرّب ورثة الأنبياء والدعاة ويهجرون من أوطانهم؟

أرأيت كيف يخرج المصلحون الدعاة من أوطانهم فراراً من بطش الظلمة؟

إنه طريق المصلحين، طريق مفروش بالأشواك، طريق الغربة ومفارقة الأوطان، إنه طريق الابتلاء والاختبار لإيمان أصحاب المبادئ، فيفروا إلى الله متمسكين

بدينهم، مؤثرين ما عند الله على ما عند غيره من مصالح ومنافع. ولو كانت هجرة الأوطان والأهل والأرحام ولكنها هجرة مؤقتة تنتهي بتحرير الأوطان والإنسان. كما انتهت رحلة موسى – عليه السلام – وكما انتهت هجرة المصطفى ﷺ بفتح مكة، أعتى قلاع الشرك. وتحرير المستضعفين.

المقالة الخامسة

فوائد الرعي لموسى – عليه السلام –

ذكرنا في المقالة السابقة أن موسى عليه السلام لجأ إلى أرض مدين بعد المؤامرة القذرة التي كانت تستهدف حياته من فرعون ووزراء فرعون وأعيانه وكبرائه وأمرائه وأركان حكمه. وحل ضيفاً على الرجل الصالح من أرض مدين.

لقد لاحظ الرجل الصالح وأهل بيته قوة في موسى عليه السلام وأمانة كذلك. فعرض عليه بناءاً على اقتراح احدى ابنتيه أن يستأجره، قال تعالى: ﴿**يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ [القصص: ٢٦].

والمتأمل في هذه الآية يجد الولايات العامة والخاصة ينبغي أن تتوافر في شاغليها أمران هما: الكفاءة والأمانة.

أمّا الكفاءة فهي تشمل المؤهلات العلمية والإدارية والفنية وغيرها من التخصصات المناسبة. وأمّا الأمانة فتشمل التقوى ومخافة الله والعدل في النظرة. وعدم المحاباة، والحرص على العمل ومراقبة الله في ذلك.

وهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. فلا يقبل المبرز في كفاءته العلمية ومؤهلاته إذا كان غير متصف بالأمانة والنزاهة والورع ومخافة الله. ولا يقبل التقي الورع الزاهد إذا كان أمياً أو جاهلاً لا يتقن العمل الموكل إليه ولا غَيْرَهُ.

حقاً لقد كان موسى عليه السلام قوياً في كفاءته، أميناً في دينه وتقواه ومعاملته كما لاحظت ابنة الرجل الصالح، وكما أثبتت سيرته بعد ذلك.

وهذه هي القاعدة العامة في اشغال الوظائف في كل دين وبخاصة في الاسلام، ينبغي أن يجمع صاحبها بين الكفاءة والأمانة، وكان الرسول ﷺ إذا تقدم

لديه قوي في ايمانـه ودينه وتقواه وورعـه وغير كفء في تولي ولاية من الولايات، كان لا يوليه ويصارحه بذلك. فقد قال له أبوذر – رضي الله عنه: «يا رسول الله أمرني، فقال له النبي ﷺ: يا أبا ذر إنك امرؤ ضعيف لا تولين على اثنين ولا تولين على مال يتيم».

وكان أبوذر– رضي الله عنه – قد قال رسول الله ﷺ في أمانته ودينه وفضله: ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر.

أخي القاريء الكريم: لقد تعاقد الرجل الصالح مع موسى ـ عليه السلام – أن يعمل لديه راعياً ثماني سنوات. وهذا العقد قد استوقفني. وتساءلت في نفسي ما الحكمة من هذا؟

ولقد انقدح في روعي واستقر في نفسي أن موسى – عليه السلام – قد نشأ منذ ولادته ومدة طفولته وحتى بلوغه في قصر فرعون. حيث الحياة الرغيدة، والعيش الهانيء، تعود أكل أطيب الأطعمة وأشهاها. وأن يلبس أجود الألبسة وأزهاها. وأن ينام على فراش وثير ويلتحف الحرير. انه تعود حياة المترفين وتأثر بهذا الجو الذي كان يتقيد بنظامه في المأكل والمشرب، والمقام والمنام، والراحة والاستجمام، والخطاب والكلام، والتقاليد والعادات المتفشية في قصور الفراعنة.

لقد اختار الله تبارك وتعالى له بعد هذه الحياة مهنة الرعي، رعي المواشي من أغنام وغيرها. وهذه المهنة تكسب صاحبها التواضع، والشجاعة والرحمة والصبر وحب الخير.

فالراعي يعيش مع هذه الأغنام وينام بالقرب منها، ويعيش شظف العيش، ويشرف على خدمتها، فلا بد أن تتطامن نفسه لهذا ويألف هذا، حتى يصبح شيئاً مركوزاً في نفسه. وهكذا حدث لموسى عليه السلام.

والرعي يكسب الراعي الشجاعة، فهو الذي يتصدى لكل حيوان مفترس ينقض عليها فيصرعه أو يطرده، فهو قائم على حراستها.

والرعي يكسب الراعي العطف والحنان، فهو يعايش هذه الأنعام، من إبل وبقر وغنم وهي تتوالد، فيقوم بخدمتها وحمل أجنتها وإرضاعها، ويصبح هذا جزءاً من حياته، فتتشرب نفسه بالعاطفة نحوها، ومن ثم يكون عطفه على الإنسان الضعيف أقوى وأشد. وتكون عاطفته أغزر وأكثر نحو هذا الانسان الفقير أو المظلوم أو المحتاج.

والراعي يتعلم الصبر من الرعي لما يجده من خشونة العيش وشظفه، سواء كان لنوع الطعام أو لحرارة الجو في الصيف، وبرودة في الشتاء، أو لغير ذلك من العوامل الكثيرة المؤثرة.

والراعي يتعلم في رعيه البحث عن الخير وإيصاله الى من يحتاج إليه، ولو كان حيواناً من سائمة الانعام، أقول لقد انقدح في روعي أن الله تبارك اقتضت حكمته أن ينسى موسى عليه السلام، الحياة الرغدة الهائنة المترفة في المأكل والملبس والعادات والتقاليد التي عاشها في القصر الفرعوني، وينسخها من حياة موسى ويبدلها بالرعي الذي أذهب كل هذه الصفات، وحل محلها صفات هي صفات الرسل حتى إذا نزلت عليه رسالة كان بهذه النفسية المتواضعة الرحيمة والشجاعة. وهكذا كان.

وخلاصة القول: إن حياة موسى في القصر الفرعوني قد أثرت فيه. وبالرعي قد مسحت كل الصفات والسلبيات التي ألِفَها موسى في القصر الفرعوني في صغره ونشأ عليها وترعرع، كل ذلك كان بقدر الله وعنايته ورعايته. نسألُه سبحانه أن يرزقنا التواضع والصبر والشجاعة وحب الخير، ويجريه على أيدينا لغيرنا ولأنفسنا وأرحامنا، وأن ينجينا من أي أثر من آثار الفراعنة وعاداتهم وتقاليدهم. انه نعم المولى ونعم النصير.

المقالة السادسة

موسى يدرك ظلم فرعون فيكرهه ويهجر قصره

لقد نشأ موسى – عليه السلام – في قصر فرعون منذ صغره بأمر من ربه وقدره يوم أن التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً أو حزناً، ورغبت امرأة فرعون ألا يقتل هذا الطفل موسى. مؤملة أن يكون هذا الوليد مصدر سرور وسعادة لها ولفرعون، فتشبع بحضانتها له غريزة الأمومة عندها قال تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إنّ فرعون وهامانَ وجنودهما كانوا خاطئين، وقالت امرأةُ فرعون قرَّة عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون**﴾ [القصص: ٧، ٩].

أما هي، فقد كان موسى حقاً مصدر سعادة وسرور بالنسبة لها فيما بعد، إذ سعدت بتربيته والحنو عليه، وسعدت به يوم أن أرسله الله رسولاً، فآمنت به وكفرت بألوهية فرعون، وتبرأت من فرعون وعمله الظالم الفاجر الكافر. ودعت إلى الله أن ينجيها من فرعون وعمله، وأن يرزقها الجنة. وفضلت ذلك على حياة الملوك ونساء الملوك وترف الملوك، وسرفهم وسوء معاملتهم فقالت: ﴿**رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين**﴾[التحريم: ١١]. فاستجاب الله دعاءها وأسعدها في الدارين، وهكذا انتفعت بموسى واتبعت دينه وتحررت من الشرك والظلم. أما فرعون وآل فرعون فكان لهم موسى – عليه السلام – مصدر حزن، وعدواً قد قضى على ملكهم كما قال الله تعالى: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ [القصص: ٨].

إن موسى – عليه السلام – قد عاش حياة القصور، فقصور الفراعنة، المملوءة

بالفسق والفجور، والظلم والعسف والطغيان، ولقد ترعرع فيها، وشب وكبر حتى بلغ سناً ما بين ثمانية عشر إلى الثلاثين عاماً كما تذكر بعض كتب التفسير، وكان قوي البنيان وكامل الخلقة قوي البأس والشكيمة، ولقد آتاه الله قوة في عقله وقوة في جسمه، فكان حكيماً، فقيهاً في الدين قال تعالى: ﴿**ولمّا بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾[يوسف: ٢٢].

لقد نشأ هذا الشاب وفتح عينيه على ظلم فرعون، وظلم فرعون لمن؟ إنه ظلم فرعون لقوم موسى فهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فيشيع الفساد الأخلاقي، والفساد الجنائي الذي يتمثل في سفك دماء الأطفال وإثارة الرعب في قلوب الآباء والأمهات والاخوان وسائر أفراد القوم لأنهم ليسوا أمناء على أنفسهم ولا على أبنائهم.

لقد أثرت هذه البيئة في نفس موسى – عليه السلام –، وأثرت هذه الممارسات الظالمة القاسية المتوحشة في نفس موسى – عليه السلام – تأثيراً بليغاً، فكان من البدهي أن يتولد في نفس موسى شعور بالألم، والمرارة، مما دفعه بكل قوة إلى أن يرفض رفضاً قاطعاً هذا الظلم وأن يتمرد على الظالمين، وإن كانوا هم الذين ربوه في صغره، وعاش في كنفهم حتى بلغ أشده. بل لا بدّ أن يتعاطف مع قومه المستعبدين المظلومين. وإذا اقتضى الأمر أن ينصر المظلوم منهم على الظالم فينبغي أن ينصره ولا يتردد في نصرته مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك. وهذا الذي كان.

والآيات تشي بأن موسى – عليه السلام – لم يعد حبيس القصر الفرعوني بعد أن كبر، بل استقل وخرج من القصر، وأصبح حر الحركة والتجوال. تأمل قوله تعالى: ﴿**ولمّا بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه**﴾ [القصص: ١٤، ١٥].

وخروجه من القصر الفرعوني، كان نتيجة ما رأى من الفسق والفجور والظلم في حياة القصور. وشعوره بأنه يجب أن يقاوم الظلم والظالمين، فلا مجال له أن

يعيش في هذا الجو الموبوء هذا الجو النتن، رائحة الظلم فيه تزكم الأنوف.

إن الآية السابقة تنص على أن موسى – عليه السلام – دخل المدينة يترقب، أي دخلها متخفياً. حتى لا يعلم به أحد. وهذا يدل على أن العلاة فرعون ورجال القصر الفرعوني، وبين موسى – عليه السلام – قد تغيّرت من إلى عداوة، ومن تعاطف إلى تدابر. فكيف حدث هذا؟

وما نتيجة هذا؟

هذا ما سنجيب عليه في المقالة التالية

المقالة السابعة

موسى ينتصر من المستكبرين للمستضعفين

إن الآيات القرآنية تفيد أن موسى – عليه السلام – قد خرج من قصر فرعون بعد أن كره حياة القصور والظلم والفجور فيها، وأنه وجد رجلين يقتتلان أحدهما من قوم موسى المستعبدين، والآخر من شيعة الأسرة الحاكمة المعادية لموسى وقومه، فهبّ موسى يلبي استغاثة أحد المستعبدين من قومه فضرب الفرعوني بمجمع يده فكانت الضربة القاضية قال تعالى: **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾** [القصص: ١٥].

إن القتل لم يكن مكشوفاً للناس. بل كان لا يعلم به إلاّ الله، ثم ذلك الرجل من قوم موسى، فكيف وصل الخبر إلى فرعون؟

لقد تسرب قتل موسى للرجل الفرعوني إلى فرعون الطاغية ورجال قصره، ويبدو أن تسرب الخبر كان من قوم موسى عن غير قصد، وإنما إذا عاش الناس في جو الظلم والاستعباد والتنكيل، ورأوا من يقف في وجه هذا الظلم، يتصدى للظالمين وزبانيتهم، ويبلغ هذا التصدي أن ينتصف منهم وأن يقتل المعتدي. فإنهم يسرون سروراً عظيماً لذلك، إذ وجد من بين هؤلاء القوم من يؤدب أعوان الطغاة، والطغاة. فتناقل قوم موسى هذا الخبر وأشاعوه حتى عم الخبر فوصل إلى فرعون.

ولقد قرر فرعون قتل موسى – عليه السلام – بعد تشاور مع رجال القصر، ويرى بعض المفسرين أن حكم فرعون هذا كان على سبيل مجازاة القاتل بالقتل.

وإننا لو تأملنا حياة الحكام الفراعنة قديماً وحديثاً لا نجد أنهم يتعرضون للمساءلة والمحاكمة والمحاسبة، وإن قتلوا الأنفس وسرقوا الأموال وأهلكوا الحرث والنسل، بل إن فعلهم هذا مألوف.

ولو بقي موسى – عليه السلام – من رجال القصر الفرعوني مخلصاً لنظامه الطاغوتي وقتل عشرات الناس مكان الواحد الذي قتله، لم ينكر عليه ذلك. ولم يحاسب عن ذلك، فهذه هي أعراف ألفها الناس من الظلمة واستمرأوها.

إن الذي أقض مضجع فرعون، تحول موسى – عليه السلام – من حالة الولاء إلى حالة البراء، ومن حالة الصداقة إلى حالة العداوة، ومن حالة المروض إلى حالة الثائر على الظلم والظالمين، انه يريد أن يمرد المظلومين على جلاديهم، ولم يكتف بالتنظير؛ بل باشر بنفسه يدافع عن المظلومين، ويلقن الظالمين درساً حازماً.

ولهذا لم يكن قرار قتل موسى قراراً قضائياً علنياً، وإنما كان قراراً سرياً، كما يلجأ الفراعنة والطواغيت في تصفية خصومهم السياسيين سراً دون أن يعلم أحد. ولكن شاء الله تبارك وتعالى أن يطلع على أسرار المؤامرة رجل يحب موسى – عليه السلام – ويكره الظلم والظالمين، فجاء إليه يغذ الخطى مسرعاً يخبره بالمؤامرة عليه، وأن المتآمرين يستهدفون قتله فعليه أن يخرج من البلد قال تعالى: ﴿**وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين**﴾ [القصص: ٢٠].

أخي القارئ الكريم يمكنك أن تأخذ أكثر من درس مما قرأت، ومن ذلك أن الولاء أمر قلبي وهو اعتقادي يتلخص في حب الله ورسوله والذين آمنوا، والأمر الثاني عملي وهو نصرة المؤمنين والوقوف بجانبهم، وكذلك اعانة المظلومين والمستضعفين.

وكذلك البراء فهو أمر اعتقادي يتمثل في كره الكافرين والظالمين والفاسقين، وأمر عملي سلوكي متمثل في معادة الكافرين والظالمين، وسائر أنواع الطواغيت ومحاربتهم والانخلاع من كل ولاء لهم، والتبرؤ منهم بل ومقاومتهم.

ولقد توافر في مواقف موسى السابقة الولاء لله والذين آمنوا يحبهم وينصرهم، والبراءة من أعداء الله فرعون وأركان حكمه وجنوده يعاديهم ويقاتلهم ويقاومهم.

إن المغلوبين على أمرهم والمقهورين يبحثون عن محرر لهم تتوافر فيه صفات القيادة من قوة وشجاعة، فما أن ظهر موسى – عليه السلام – حتى أعجب الشعب المقهور به وامتدحوه. وامتدحوا فعله حتى شاع في جميع أرجاء مصر بين المستضعفين.

إن الطواغيت لا يطيقون أن يروا مخالفيهم على قيد الحياة، ويسعون للتخلص منهم بأساليب خسيسة وفي مقدمتها التصفية الجسدية.

قد يقدر الله لأي إنسان صالح أن يكون في مركز حساس، أو أن يمكنه من حضور اجتماع خطير لظلمة يعادون الاسلام ويخططون ضد الحركة الاسلامية وضد دعاتها. فيجب عليه والحالة هذه أن يخبر المعنيين بهذا الأمر، حتى يدرسوه ويتخذوا التدابير الكفيلة بالتصدي له ومقاومته وابطال آثاره. وهذا من النصح لله ولرسوله وللمؤمنين، فإن النصح في الإسلام إرادة الخير للمنصوح له.

فقهنا الله جميعاً في الدين. وأقدرنا على استنباط الحكم والعبر والعظات والدروس من القصص القرآني. ووفقنا للاستفادة من هذه الحكم والعبر في عملنا الاسلامي وسيرنا الحركي المنظم، لاستئناف الحياة الاسلامية وإقامة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

المقالة الثامنة

يتآمرون على أبناء جلدتهم ارضاء لفرعون

لقد ذكرنا أن فرعون علا في الأرض واستعبد شعبه وسفك دماء المستضعفين يوم أن كانت لديهم القابلية للاستضعاف. إذ استخفهم لضعفهم وفسقهم. قال تعالى: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد أرسل الله تبارك وتعالى موسى – عليه السلام – إلى فرعون وهامان وقارون، يدعوهم إلى الإيمان بالله وتحرير الشعب المستعبد الخانع تحت كابوس فرعون وهامان وقارون وسائر رجال القصر الفرعوني وحاشيته. قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب**﴾[غافر: ٢٣، ٢٤].

إذا تأملت أخي القارئ الحبيب هذه الآية تجد أن الله تبارك وتعالى قد ذكر بجوار فرعون هامان وقارون وقد خصهما بالذكر باسميهما من دون ملأ فرعون. هذه الخصوصية ترجع إلى أنهما أعمدة الحكم وأسس النظام الفرعوني. مع أن هارون ليس من قوم فرعون، وإنما هو من قوم موسى. وقوم موسى وقارون يقاسون من ظلم فرعون وطغيانه، فهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسخرهم كالدواب لخدمته.

أمّا إن قارون من قوم موسى فقد أخبر القرآن بذلك. قال تعالى: ﴿**إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة**﴾ [القصص: ٧٦].

إن مما يلفت النظر أن قارون كان غنياً وحرصه على المال دفعه ليرتمي في أحضان فرعون الطاغية، وتخلى عن قومه بسبب مصلحته الشخصية المتوهمة عند فرعون، والعيش في كنفه.

ويؤخذ من هذا أيضاً، أن فرعون عليه اللعنة يستطيع أن يشتري الأشخاص ويربطهم بحاشيته لقاء لعاعة من لعاعات الدنيا من جاه أو مال، على الرغم من كثرة أموالهم.

يشترى هؤلاء ليكونوا أصفياء عنده، وأعداء لأقوامهم، يؤيدون فرعون في ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم.

هكذا يستغل عبيد الدنيا من أهل الدنيا استغلالاً بشعاً، استغلالاً يتنازلون فيه عن كل شيء، عن آبائهم عن أبنائهم، عن أقاربهم، عن كرامتهم.

ومما يؤسف له أن هذا الأسلوب لم يكن في عهد فرعون مصر الطاغية، ولا على يده – لعنه الله – فحسب، بل إنه أسلوب قديم حديث، متجدد في كل زمان ومكان، أسلوب شراء الرجال، بشيء من المال أو الجاه أو المركز. وهذا الشيء زهيد تافه، وهؤلاء الفراعنة يأخذون منهم ثمناً باهظاً جداً. وضع مصيرهم مع مصير الطغاة الفراعنة، الدفاع عن مفاسد الفراعنة وبطشهم، المشاركة في البطش وسفك الدماء، التخلي عن الأهل والأرحام، التخلي عن المظلومين من أبناء جلدتهم. محاربة دعاة التحرير والتوحيد من أقوامهم الذين جاءوا لتحرير هؤلاء المستضعفين.

تأمل قارون وموقف قارون من موسى، انه يكرر ما يقول فرعون تماماً. إن موسى الذي جاء بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة على توحيد الله، وتحرير المستضعفين الرازحين تحت جبروت فرعون يقول عنه ما قاله فرعون: ساحر كذاب.

يقول هذا عن موسى بعد أن قامت الحجج على أنه صادق صدوق، وأنه رسول التحرير والتوحيد. يقول هذا مكابراً، يدفعه حرصه على مصلحته الشخصية، وتقربه من فرعون الطاغية حفاظاً على مركزه وحظوته، إلاّ أنها حظوة الاتباع العبيد لا حظوة السادة الأشراف الأحرار.

إن ما يجعل العيون تتفجر دماً أن يوجد من المسئولين في عالمنا المعاصر من يشتري الرجال بالجاه والسلطان. ويجعلهم يطوفون في فلكه، كما يدور الحمار

بالرحى، ويردد ما يقولون كما تردد الببغاء ما تسمع، دون وعي أو إدراك لخطورة ما يقال. وإن مما يثير الأحزان والأشجان في هذا الزمان النكد، ويؤلم أشد الألم أن يقبل نفر من الناس ويرضوا أن يكونوا سلعة رخيصة تباع وتشترى في أسواق النخاسة، يقبلون أن يضعوا النير في أعناقهم، وقد خلقهم الله أحراراً، وحرم عليهم أن يبيعوا أنفسهم لأن الأحرار لا يباعون، ولا ثمن لهم ولو كان ملء الأرض ذهباً.

حقاً إنني أعجب من هؤلاء الذين رضوا لأنفسهم واختاروا حظوة الأذلاء لا الأعزاء، والأذناب لا الرؤوس والأشرار لا الأخيار.

ولكنني أذكر حديث الرسول ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». إن إنعدام الحياء يدفع صاحبه إلى كل ذلك وأكثر من ذلك.

وأخيراً، فإننا نضرع إلى الله العزيز الكبير المتعال، أن يرزقنا الحياء الوافر الذي يحررنا من استعباد الدنيا واستعباد أهلها، وأن يزهدنا في الدنيا فلا تكون أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. ونضرع إليه سبحانه أن يحررنا من الهوى والضلال والفتنة، وبخاصة فتنة المال والجاه والسلطان، الذي أعمى قارون عن الحق وأعمى إخوة قارون في عالمنا المعاصر فتخلوا عن المظلومين الجائعين ووقفوا بجانب الظالمين، بل كانوا هم الظالمين المستكبرين.

المقالة التاسعة

مخاطبة الفراعنة تتنوع حسب الأحوال: (لكل مقام مقال)

لقد كلف الله تبارك الله وتعالى موسى – عليه السلام – وأخاه هارون بالذهاب إلى فرعون ودعوته الى الإيمان بالله وتحرير الشعب المستعبد من طغيانه. قال تعالى: ﴿**اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري، إذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٢ – ٤٦].

إن القرآن يسجل في هذه الآيات أن فرعون موسى طاغية ظالم، والله أرسل موسى وهارون ووصاهما أن يخاطباه بأسلوب لين رفيق رقيق، وأن يتلطفا في معاملته ويجاملاه بأرق العبارات طمعاً في ايمانه، وهذا من حلم الله تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أدرى من خلقه بفرعون.

لقد أوصاهما الرب تبارك وتعالى في هذه المرحلة لهذا الطاغية أن يكثرا من ذكره سبحانه، ولا يفترا لحظة واحدة فإن ذكر الله يشعر الذاكر بأن الله معه، يركن إلى ركن ركين، وحصن منيع، فيبعث في قلبه الأمن والأمان، ويسكب في نفسه الاستقرار والطمأنينة، فهو الحافظ وهو العاصم وهو النافع وهو الضار، بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

لقد تقدم موسى وهارون – عليهما السلام – بمخاطبة فرعون بأسلوب هين لين، فأنكر نبوتهما ورسالتهما، فقدما له معجزتين: معجزة العصا تنقلب إلى أفعى، ومعجزة اليد التي تخرج من تحت إبطه بيضاء تتلألأ بعد أن كانت سوداء ثم تعود إلى حالها.

لقد كان ذلك بناء على طلب من فرعون أن يأتي بما يدل على رسالته، ولكن فرعون أمام هاتين المعجزتين استكبر وعتا عتواً كبيراً، وواجه موسى بالحملات الظالمة، والافتراءات الباطلة، بأن ما جاء به هو ضرب من السحر، وعند فرعون من السحرة من يأتي بأكثر مما جاء به موسى من المعجزات. وأن موسى جاء يتآمر على فرعون وعلى حاشيته ليزيل سيادتهم عن مصر. تأمل قوله تعالى في موقف فرعون: ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**﴾ [طه: ٥٦، ٥٧].

إن مما لا شك فيه أن موسى – عليه السلام – وأخاه هارون قد جاءا برسالة التوحيد والتحرير، توحيد الله والغاء ألوهية فرعون، وتحرير المستضعفين من ظلم فرعون، وهذا الذي أغضب فرعون، وأغضب هامان وقارون، وأغضب رجال القصر والحاشية والملأ من قومه، أي الكبراء والأمراء والوزراء، وسموا بذلك لأنهم يملأون قلوب الناس خوفاً وجزعاً وهلعاً لما لهم من قوة وبطش وصولة وجولة ودولة، وغيرهم لا صولة له ولا دولة ولا حيلة.

ومما يجدر ذكره أن كل فرعون من الفراعنة يخشى من دعوات الرسل والمصلحين، لأنها دعوات تحرير وتوحيد، ودعوات يستجيب لها الناس ويتفاعلون معها، لأنها جاءت لإنقاذهم. فهم مستضعفون في الأرض، مستعبدون، قد استعبدهم الفراعنة ووزراؤهم وأمراؤهم. وهم يبحثون عن منقذ ينقذهم ومحرر يحررهم فلا يجدون إلاّ الرسل.

نعم لقد أدرك فرعون خطورة دعوة موسى وأثرها على زوال سيادته، وفرعون هذه الأمة أدرك خطورة دعوة الاسلام على سلطاته وزعامته فكرهها وقاومها، وأدرك الأعرابي الفقير حقيقة هذه الدعوة، دعوة التوحيد بأنها دعوة تحرير للجماهير المستعبدة، حين سمع رسول الله ﷺ كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله فقال له: هذا أمر تكرهه الملوك، وقال آخر: هذا أمر ستحاربك عليه ملوك العرب والعجم.

والرسول نفسه كان يقصد من كلمة التوحيد التحرير. تحرير العقل من

الخرافات والأوهام، وتحرير النفس من الخوف من الطواغيت، وتحرير النفس من الخوف على الرزق والأجل، وتحرير المستضعفين من المستكبرين، واستخلاف المستضعفين وتدمير المستكبرين، تأمل قول الرسول ﷺ: «قولوا لا إله إلاّ الله كلمة تسودون بها العرب والعجم». إنه يريد تحطيم مملكة الطاغوت العربي، وممالك الطاغوت الأعجمي، سواء كان طاغوتاً رومانياً أو فارسياً. وقد حطم الرسول ﷺ نظام الطاغوت العربي ،كما حطم أصحابه نظام الطاغوت الفارسي. ونظام الطاغوت الرومي.

إن ما يجدر ذكره هنا، أن الأسلوب الذي بدأ به موسى – عليه السلام – يخاطب فرعون: فقولا له قولاً لينا، قد تغير عندما وقف فرعون يسيء الأدب مع موسى – عليه السلام – ويكذبه ويتهمه بالسحر، وأنه مسحور فوقف موسى ينكر بطش فرعون ويتحداه وينذره بالهلاك وسوء العاقبة وأنه هالك لا محالة.

قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً، قال لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاء إلاّ ربُّ السموات والأرض بصائِر وإني لأظنك يا فرعونُ مثبوراً، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً**﴾ [الاسراء: ١٠١ – ١٠٣].

تأمل أخي القارئ رد موسى – عليه السلام – على سوء أدب فرعون حينما اتهمه بأنه مسحور قد اختلط عقله، وأن البينات التي قدمها مجرد سحر مسحور: إني لأظنك يا فرعون مثبوراً، والظن هنا الاعتقاد والجزم، أي أني أجزم بأنك يا فرعون هالك خاسر لا محالة.

أخي القارئ الكريم:

يمكننا بعد تدبر ما سبق أن نستخلص منه دروساً وعبراً كثيرة منها:

– إن رسالة الرسل والمصلحين والدعاة تتلخص في تأليه الله وتوحيده وتحرير المستضعفين.

- حب الزعامة عقبة كأداء في نفوس الطغاة يمنعهم من الإيمان والاستجابة لدعوة الحق وانصاف المظلومين.

- الأسلوب في مخاطبة المدعوين يختلف من شخص لآخر، ومن طاغوت لطاغوت، ومن حالة لأخرى، فهو لا يأخذ صورة واحدة، وإنما يتغير بتغير الظروف والأحوال، فالبداية تقتضي الملاطفة في القول واللين في التخاطب، وفي النهاية يتناسب الأسلوب مع موقف الطاغوت، فإن كان متحدياً ومتهماً ومكذباً، يجابه بالتحدي والتصدي كما كانت نهاية المخاطبة لفرعون.

- أسلوب التشكيك الذي سلكه الطاغية فرعون مع موسى بقوله: ﴿**وإني لأظنك يا موسى مسحوراً**﴾ [الاسراء: ١٠١]، أسلوب خبيث، هو زرع الشك في نفوس الناس تجاه موسى ورسالة موسى. وهو أسلوب يسلكه الطواغيت الفراعنة بين أفراد الشعب الواحد حتى يفقدوا الثقة بكل شيء وبجميع الناس، وتصل الحالة إلى مستوى أن يفقد الناس ثقتهم بأنفسهم ويخشى بعضهم من بعض، ويشك بعضهم في اخلاص بعض، وهذا ما يهدف إليه الطواغيت في كل زمان ومكان. فليحذر الدعاة والمدعون هذا الأسلوب ولا يخدعوا به.

المقالة العاشرة

حملات الإعلام الفرعونية لم تؤت ثمارها الخبيثة

إن الذي يقرأ الآيات القرآنية التي تحدثت عن قصة موسى – عليه السلام – وفرعون الطاغية – لعنه الله – والملائكة والناس الصالحون. يلاحظ أن موسى – عليه السلام – كان يقدم الآيات البينات، والحجج الدامغات على صدق نبوته ورسالته. ويلاحظ في نفس الوقت أن فرعون قد عجز عن مواجهة الحجة بالحجة، والفكرة بالفكرة، وكان يغطي عجزه هذا بأساليب كثيرة، ومن هذه الأساليب توجيه الحملات الاعلامية الكاذبة نحو موسى – عليه السلام – ودعوته، قاصداً من ذلك تشكيك الناس في دعوته، وتشويهها في نفوس الناس، ومن ثم عدم تعاطف الناس معه ولا اعتناق فكرته ودعوته، وهادفاً إلى إقناع الناس بالواقع الآسن الذي يعيشونه ليرضوا به.

لقد حدثنا القرآن عن اتهام فرعون لموسى بالكذب في قوله تعالى:﴿**وإني لأظنه كاذباً**﴾ [غافر: ٣٧] واتهامه موسى بالسحر في قوله تعالى: ﴿**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ [طه: ٧١] واتهامه باختلاط العقل والجنون في قوله تعالى: ﴿**إني لأظنك يا موسى مسحورا**﴾ [الاسراء: ١٠١] واتهامه بالفساد في قوله تعالى: ﴿**ذروني اقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرضِ الفساد**﴾ [غافر: ٢٦].

ولكن موسى – عليه السلام – لم يعبأ بهذا النقيق، ولم يكترث بهذه الإشاعات المغرضة، والاتهامات الباطلة، وبقي مصراً على موقفه ثابتاً على مبدئه، يبشر به، ويحاور الآخرين، حتى أدرك الناس حقيقة افتراءات فرعون، وصدق دعوة موسى عليه السلام.

ومما يجدر ذكره أن الذي يعيش مع القرآن الكريم، يلاحظ بسهولة ويسر أن

أعداء الدعوات التغييرية الاصلاحية من الطواغيت والفراعنة في الأزمنة المختلفة والأصقاع المتباعدة يسلكون نفس المسلك، ويثيرون نفس التهم، ويقفون نفس المواقف من أصحاب هذه الدعوات.

ولقد سجّل الله تبارك وتعالى، تهمهم الباطلة للدعاة والرسل التي اتفقوا عليها وتناقلوها جيلاً بعد جيل في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ، أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون**﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

لقد اجتمعوا في الضلالة والطغيان ومقاومة الرسل والدعاة. وأجمعوا على معاداتهم وتوجيه التهم الباطلة الكاذبة، والافتراءات الظالمة النابعة من تلك النفسية الخبيثة، والصفات الذميمة التي اجتمعوا فيها وتوافقوا عليها. وشنوها حملة شعواء نحو الرسل والدعاة على تعاقب الأجيال والأزمان واختلاف الأصقاع والبلدان.

وهذا توجيه رباني للدعاة واتباع الرسل، ألا يتأثروا بهذه الحملات الاعلامية الظالمة الكاذبة المفتراه، وإن أكبر دليل على أنهم على حق، وقوف هؤلاء الطواغيت يكيلون لهم هذه التهم الجائرة الزائفة، فعليهم أن يثبتوا على مبادئهم. وأن يستمروا بنشاط في تبليغ الدعوة وكسب الأنصار، حتى يكتب لهم النصر في الدنيا، والفوز في الآخرة. قال تعالى: ﴿**إنا لننصر رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار**﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وسمعنا كثيراً من فراعنة القرن العشرين من يتهم الشهيد الحي سيد قطب بأوصاف لا تعدو الكلمات التي أطلقها فرعون وغيره من الطواغيت. وسمعنا في أرض الشام من يتهم الاخوان المسلمين بعملاء كامب ديفيد، وعميل كامب ديفيد يطاردهم ويزجهم في غياهب الزنازين والسجون.

لقد سمع الناس وقرأوا في وسائل الاعلام المختلفة وصف المجاهدين بالمتطرفين، والدعاة بالأصوليين، لقد سمعوا من أكثر من فرعون يتهم الذين يبذلون أرواحهم

من أجل تحرير أوطانهم من عدو غاصب، بأنهم ارهابيون يجب أن يطاردوا فوق كل أرض وتحت كل سماء.

ومن قبل وَصَفَ فرعون هذه الأمة (أبوجهل) سيد ولد آدم سيدنا محمد بأنه قاطع أرحام في دعائه قبل أن يتوجه إلى بدر لقتال المسلمين، بل تعلق بأستار الكعبة وتضرع إلى الله قائلاً: «اللهم من كان أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة». فلا غرو إذا سمعنا عن فراعنة القرن العشرين كلاماً أشد عن اتباع سيد المرسلين من الدعاة والمجاهدين الذين نذروا أنفسهم لدين الله. وخلصت نفوسهم من حظوظ نفوسهم، فعاشوا قرائين يمشون على الأرض.

المقالة الحادية عشرة
إنه المنطق المعكوس

إن الحملات الاعلامية الظالمة التي أطلقها فرعون تثير الشكوك حول موسى، لم تجد فتيلاً ولم تحقق شيئاً من أهداف الطاغوت. ولكنه أخذ يبحث عن وسيلة أخرى لعلها تؤتي أكلها، وهـذه الوسيلة – وسيلة التحـريض على موسى – يوحـي لعملائه ولوزرائه وكبرائه بأن يقوموا محتجين على صبر فرعون على موسى وهو يريد التغيير والتحرير، تحرير هؤلاء المستضعفين الذين يرزحون تحت كابوس فرعون، ووزرائه وأمرائه وكبرائه وعملائه.

لقد وقف هؤلاء يحرضون فرعون على موسى ﴿**وقـال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**﴾ [الاعراف: ١٢٧].

أمّا فرعون الطاغية فالقرار عنده واضح ومعد وسابق. إذ كان يقتل الرجال ويترك النساء، فيفسد أخلاقياً وجنائياً. ولهذا فقد باشر فوراً. بالاستجابة إلى هذا التحريض المرسوم فقال: ﴿**سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون**﴾ [الاعراف: ١٢٧].

وقال فرعون محرضاً ومستفزاً: ﴿**ذروني أقتل موسى وليدعُ ربه إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ [غافر: ٢٦].

إنه المنطق المعكوس تماماً الذي ألفه الفراعنة والطواغيت، أن يتهموا المصلحين بالإفساد ويرتبوا على هذه التهمة الباطلة العقوبة القاسية الباطلة، الاعدام شنقاً أو حرقاً أو غير ذلك من صور الاعدام.

إن المنطق الفرعوني يقول: إن موسى الذي جاء داعية للتوحيد والتحرير، هو مفسد يخشى من خطره على نظام فرعون، وهو الدين الفرعوني هنا ﴿**إني أخاف**

أن يبدل دينكم﴾ [غافر: ٢٦] باسقاط الشرك، وإقامة التوحيد، واسقاط حاكمية البشر، للبشر واعلان حاكمية الله على البشر.

أمّا فرعون الذي سام الناس خسفاً وقتل آلاف الأطفال الرضع، وأذلّ رقاب الناس وفرقهم شيعاً وأحزاباً، وهؤلاء الفراعنة الذين قتلوا مليوناً من المصريين المستضعفين ليبنوا ما سمي الاهرامات ليقبر فيها الفراعنة، فهؤلاء مصلحون. وأما موسى فهو في نظر فراعنة مصر الطغاة مفسد، وهو أيضاً في نظر رجال القصر وحاشيته الطاغية من الوزراء والكبراء والأمراء والاتباع مفسد يستحق القتل.

إن المنطق المعكوس لم يكن حدثاً وقع في عهد موسى ومن فرعون موسى فحسب، بل إنه المنطق المعكوس عند كل الفراعنة قديماً وحديثاً. في الأمصار المتباعدة والأقطار المختلفة.

ألم يقف فرعون هذه الأمة أبوجهل نفس موقف فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام، ألم يتعلق فرعون هذه الأمة بأستار الكعبة ويقول: اللهم من كان أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة. أي أهلكه أول النهار.

فهو يزعم أن الرسول مبتدع وقاطع أرحام، أما الخبيث أبوجهل فهو واصل أرحام ويصلي بالليل والناس نيام!.

ولقد استجاب الله دعاء أبي جهل فأهلك قاطع الأرحام، وصعد عبدالله بن مسعود على صدر أبي جهل يريد أن يحز رقبته، فقال أبوجهل: لمن الدائرة اليوم؟

قال ابن مسعود: لله ولرسوله وللمؤمنين يا عدو الله.

قال: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقاً صعباً.

حقاً إن فرعون هذه الأمة أشد من فرعون موسى، فإن فرعون موسى لما أدركه الفرق، آمن وأعلن إيمانه برب موسى وهارون. أمّا فرعون هذه الأمة فقد أصر على كفره وقد رأى بأم عينيه قدرة الله ونصره للمؤمنين واهلاك الكافرين.

وإن فراعنة القرن العشرين أوقح وأصلف من فرعون هذه الأمة ومن فرعون

موسى، لأنهم يرون الدلائل والبراهين الربانية وهم يقاسون سكرات الموت، وفي النزع الأخير. وقد بلغت أرواحهم حلاقيمهم فلا يعتبرون ولا يتعظون، بل تأخذهم العزة بالاثم، حسبهم جهنم وبئس المهاد.

ومما يجدر ذكره أن الطواغيت الفراعنة في كل زمان ومكان حين يفلسون فكرياً وعقدياً ولا يجدون من الحجج البراهين ما يدفعون الأفكار الاصلاحية والتغييرية، فيبحثون عن وسائل لتكميم أفواه الدعاة. كالتهديد والحملات الاعلامية الظالمة والمطاردة، والنفي والتغريب، حين يستنفذون كل الوسائل في الدفاع عن سلطانهم وسلطاتهم التي اغتصبوها في غفلة من الجماهير، يلجأون إلى أسلوب التصفية الجسدية، قتل الدعاة، ظناً منهم أن بقتلهم تقتل الدعوات، وما علموا أن باستشادهم وبدمائهم الزكية تزكو شجرة الدعوة فتضرب جذورها في أعماق النفوس وأغصانها في شغاف القلوب كالشجرة المروية بالماء، تضرب جذورها في أعماق الأرض، وتبسق أغصانها في كبد السماء. تؤتي أكلها كل حين بأمر ربها.

المقالة الثانية عشرة

ثبات موسى وتحديه لفرعون حين قرر سفك دمه

لقد انقدح في روعي أن فرعون موسى وكل فرعون طاغية في شتى الأزمنة والأمكنة يلجأ إلى أسلوب التصفية الجسدية حيث لا يجدي غيره. ومن هنا قرر فرعون أن يقتل موسى وقد عجزت كل الوسائل الأخرى عن تحقيق مراده. فماذا كان موقف موسى عليه السلام؟

هل استجاب لطلب فرعون؟

هل انهارت الروح المعنوية عنده؟

هل استسلم لإرادة فرعون الظالم؟

إن القرآن يخبرنا أن موسى – عليه السلام – بقي ثابتاً كالطَّوْدِ الأشم، عزيزاً رافعاً رأسه. لم يجبن، لم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة، إنه لجأ إلى ركن ركين وحصن منيع. لجأ إلى مصدر العزة والكرامة والمنعة، لجأ إلى واهب الحياة وآخذها، لجأ إلى مالك الملك الكبير المتعال، لجأ إلى الله تبارك وتعالى وإلى حماه. ولقد عبّر عن هذا اللجوء الكريم المنيع بقوله لما سمع اعلان حكم اعدامه على لسان فرعون الطاغية قال: ﴿**إنّي عذتُ بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب**﴾[غافر: ٢٧].

لقد لجأ لله فنجاه من ظلم فرعون، وأهلك فرعون وقارون وهامان وجنودهم وأتباعهم. وفي هذا درس وأكثر أن الذي يلجأ إلى حمى الله ينقذه الله تبارك وتعالى من مؤامرات اعدائه ويهلك اعداءه. وهذا ما حصل لفرعون إذ دَمَّرَ الله عرشه ومكن للمستضعفين مكانه.

إن الذي لا يؤمن بيوم الحساب ظالم باطش، لأنه لا يعتقد الجزاء على أفعاله في

الحياة الآخرة. ويعتقد أن نهاية المطاف عنده هي هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعدها، وبالتالي يقتل ويسفك ويفسد ولا يتلجلج صدره، ولا يرف طرف جفنه إن سفك الدماء وأزهق آلاف الأرواح.

أما المؤمن بيوم الحساب، يعتقد أن الحياة الدنيا ليست هي دار القرار والاستقرار، بل هي دار ممر لدار مقر، وهي بريد الآخرة، وأن الدنيا دار ابتلاء، والآخرة هي دار الجزاء، وعلى هذا فهو لا يتكبر لأن التكبر صفة للخالق سبحانه. وهو يتواضع امتثالاً لأمر ربه ورجاء أن يثيبه سبحانه على هذا التواضع برفع المنزلة عندالله في الجنة.

وإيمانه بالآخرة يدفعه بأن يجعل الدنيا كلها مزرعة للآخرة، فلا يعتدي على الأنفس والأموال والثمرات، بل يحافظ عليها، ويفرغ كل ما في وسعه من جهد وجهاد من أجل ذلك.

أخي القارئ الكريم: إن الذي جرأ فرعون على ظلم الناس وقتل الأطفال وتصميمه على قتل موسى هو كفره بالله، وتكبره على الخلق، وعدم إيمانه بالحياة الآخرة التي يجزي الناس فيها على أعمالهم. إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أخي القارئ الكريم:

إن القرآن يحذرنا من الفراعنة، ويبصرنا بصفاتهم وينفرنا منها، حتى لا ننزلق فيما انزلقوا فيه من الكفر والتكبر والتجبر، والضلال والدعوة إلى النار.

والقرآن الكريم يأخذ بأيدينا ويرشدنا إلى عدم الخضوع لإرادة هؤلاء الفراعنة ومواجهتهم بالاستعلاء الايماني، والعزة الايمانية حتى نكون من أهل السعادة في الدارين.

والقرآن أيضاً يرشدنا إلى أن الإيمان بالآخرة والحساب والعقاب يوجد ضميراً حياً يقظاً عند المؤمن، إنه دائم المراقبة لصاحبه حتى لا يقع فيما وقع فيه المتكبرون المتجبرون الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، إنه طريق النجاة من النار.

نسأله تبارك وتعالى أن يحرم أجسادنا وأجساد آبائنا وأمهاتنا على النيران وأن يطهر ألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة. ونفوسنا من العجب والغرور، وقلوبنا من الغل والحقد على أحد من المسلمين. وأن يكسر أعناق الأكاسرة ويقصم ظهور القياصرة، ويهلك الفراعنة الجبابرة كما أهلك فرعون موسى. ومن على المستضعفين في الأرض فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

المقالة الثالثة عشرة
ديمقراطية فرعون

لقد أقام موسى – عليه السلام – الحجة الدامغة على صدق رسالته بمعجزات كثيرة تجعل من عنده عقل يؤمن برسالته، ولكن فرعون واجه موسى – عليه السلام – بالتكذيب واتهامه بالسحر، وأن عنده من السحرة ما يتغلبون بسحرهم على سحر موسى.

قال تعالى: ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينّك بسحرٍ مثله فاجعل بينا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوىً**﴾ [طه: ٥٦ – ٥٨].

هذا هو موقف فرعون، اتهام موسى بالسحر. ولكن هذا الرأي ينبغي أن يقول به الملأ من قوم فرعون رجال القصر وأعمدة الحكم من كبراء أمراء ووزراء وأعوان. حتى يكون رأي الأغلبية يقولون كما يقول، ويرون كما يرى. قال تعالى: ﴿**قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون**﴾ [الاعراف: ١٠٩، ١١٠].

يبدو أن فرعون قد تظاهر بالديمقراطية، ولكن هذه الديمقراطية تمثيلية مزيفة، لأنه أوحى لها بالموقف والرأي، تأمل قوله في الآية: يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون؟

أصبح فرعون مأموراً وغيره آمراً. فهو يستشيرهم ليعمل برأيهم. ورأيهم بزعمه يكون أمراً له! فماذا كان الموقف؟

﴿**قالوا: أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين، يأتوك بكل ساحرٍ عليم**﴾ [الاعراف: ١١١، ١١٢].

تأمل موقفهم هو نفس موقف فرعون الذي أعلنه من تكذيب موسى واتهامه بالسحر، ورأيهم هو نفس رأي فرعون وهو إجراء مبارزة بين السحرة وموسى عليه السلام.

هذه هي ديمقراطية فرعون؟

مسرحية ما بعدها مسرحية!

لكنها مسرحية مكشوفة لا تنطلي على أحد، ولا يخدع بها أحد.

إن الطواغيت وهم يتسلطون على رقاب الناس – سواء كانوا فراعنة الماضي أو فراعنة الحاضر أو فراعنة المستقبل – ويحكمون الناس بالحديد والنار، ويستبدون بالأمر، ويقهرون الشعوب، ومع هذا يدعون الديمقراطية وينادون بالحرية، والرأي والرأي الآخر. وهم يضيقون ذرعاً بسماع كلمة معارضة أو دعوة اصلاح وتغيير وتحرير.

فرعون الذي يقول بصراحة وصلف: ﴿**ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩]، يقف اليوم متظاهراً بالديمقراطية، وطالباً رأي غيره، واعتبار رأي غيره أمراً له!.

إننا ينبغي أن نشفق على أنفسنا وعلى غيرنا، ونحذر أشد الحذر من أناس في المنطقة العربية والعالم الإسلامي ينادون بالديمقراطية ويدعون إليها ويفاخرون بها ويعتزون بالأحرار والحرية، وهم في الحقيقة فراعنة لا يقيمون وزناً لقرار أمة أو لإرادة شعب. وإنما واقع حالهم يقول: ﴿**ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩].

لقد عاش الناس أياماً وسنين في المنطقة العربية ورأوا وسمعوا من يدعون إلى اعتبار اليهود العدو الأول للعرب والمسلمين لأنهم اغتصبوا فلسطين، والمسجد الأقصى وأنه لا بدّ أن يقاتلوا بكل شيء لأن هذه هي إرادة الشعب. ثم ينقلبون انقلاباً كلياً، ويتغيرون تغيراً جذرياً، وينعكسون انعكاساً كلياً، وإذا بأعدائنا يجب

أن يكونوا أصدقاءنا، وأن من يرميهم بحجر يرمي نفسه في غياهب السجون، وينكل به أشد تنكيل، لأن هذا بزعمهم هو رأي الشعب وإرادة الأمة.

ومما يجدر ذكره أن جميع وسائل الاعلام وأغلبية رجال الاعلام يجب أن تدور بفلك المسئولين فتبرر لهم هذا التغير، وتخرج لهم هذه التصرفات. وأن الشعب بأغلبيته الساحقة معهم يقول بقولهم في العداء والبراء من اليهود سابقاً، والولاء لليهود لاحقاً، والعداء والبراء من كل من يرى طريق الجهاد هي طريق التحرير وإعادة الأرض المغصوبة.

اننا يجب أن نحذر خديعة الفراعنة قديماً وحديثاً في مسرحية الديمقراطية وسراب الديمقراطية الخادع الذي يحسبه الظمآن المخدوع ماء، ويركض وراءه ركض الذي إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث فلا يجد شيئاً ثم يموت عطشاً إذا لم تتداركه عناية الله.

نسألك اللهم أن تدرك المسلمين بعنايتك ورعايتك وأن تبصرهم بحقيقة أعدائهم وحقيقة الفراعنة وأن تمنّ عليهم بالنصر والتمكين.

المقالة الرابعة عشرة
كيد فرعون في تثبيت حكمه

ذكرنا في حلقة سابقة أن فرعون ركب رأسه وأصر على موقفه من العلو والاستكبار أمام معجزة العصا التي تنقلب أفعى بإذن الله. وأمام اليد التي تخرج بيضاء تتلألأ من تحت إبطه بقدرة الله وإرادته. واتفق هذا وزبانيته وأركان حكمه وسدنته أن معجزة موسى – عليه السلام – مجرد سحر، وفي مملكته سحرة كثيرون، ينبغي أن يحشدوا لمبارزة موسى عليه السلام.

لقد أرسل فرعون إلى جميع السحرة في مملكته فجاءوا، ووعدهم فرعون ومناهم إن هم تغلبوا على موسى – عليه السلام – بمكافأتهم مكافآت جزلة وأن يقربهم منه. ويعطيهم الأوسمة والنياشين تكريماً لهم على ما بذلوه من جهود وما حققوه من نتائج تخدم العرش الفرعوني وتثبت أركانه. قال تعالى: ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى. فلنأتينّك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوىً. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى**﴾ [طه: ٥٦ – ٦٠].

ولما جاء السحرة طلبوا من فرعون الطاغية أن ينعم عليهم بالأجر الجزيل، قال تعالى: ﴿**وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم لمن المقربين**﴾ [الاعراف: ١١٣، ١١٤] وهذه الآيات تشعر أن فرعون الطاغية كان يسخر الناس لخدمته وتثبيت أركان حكمه دون أجر ودون مكافأة، ولهذا تجرأ السحرة هنا فطلبوا الأجر وقد أَلِفُوا السخرة منه فأجابهم بأنه سيعطيهم الأجر، ويزيدهم فوق الأجر، وتعيينهم في وظائف الدولة الحساسة والمراتب العالية. ويغدق عليهم من المال والغذاء والكساء الفرعوني ما يسيل له لعاب الطالبين لهذه الأشياء.

وهنا نتوقف لنستنبط درساً مهماً وهو أن فرعون سخر السحرة للوقوف في وجه الحق ودعوة الحق في مقابل لعاعة من لعاعات الدنيا.

وفراعنة القرن العشرين يسلكون هذه الوسيلة الفرعونية المتخلفة في ترسيخ أركان حكمهم، والمحافظة على امتيازاتهم ومصالحهم التي اغتصبوها في غفلة من الجماهير. فيشترون ضعاف النفوس بعرض زائل من عروض الدنيا الزائلة، ويسخرونهم في مقابل ذلك للتصدي للحق وحملة الحق ولو أدى ذلك إلى خزيهم وذلهم وانكسارهم.

أقول: كم من الناس من حملهم حرصهم على المال والجاه والسلطان أن يتنازل عن قيمه، وأن ينسلخ من كرامته، وأن يكون مسماراً في بسطار طاغوت من طواغيت الأرض وفرعون من فراعنتها. ثم يلفظ بعد ذلك لفظ النواة، لأنه أدى مهمته، وجاء دور غيره من العملاء ليقوم بدور آخر.

أخي القارئ الكريم: أرجو أن أهمس في أذنك أن تحذر كل الحذر، وتخشى أشد الخشية من أن يسيرك هواك. وأن تسول لك نفسك بأنك لن تصل إلى ما تصبو إليه من مال أو منصب أو سلطان إلاّ إذا بعت نفسك لغير الله بأتفه الأثمان، ولو كانت الدنيا فإن الدنيا لا تصلح أن تكون ثمنك وثمن نفسك. وإنما هي الحياة الخالدة في نعيم مقيم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين اعتزوا بالله، واستمسكوا بكتاب الله وعضوا بنواجذهم على دعوة الله، يبذلون المال والنفس والنفيس في سبيل هذه المنزلة السامقة.

ولله در الشاعر حين قال محذراً من مغبة الحرص على الدنيا واعتبارها أو اعتبار مناصبها أو نعيمها ثمناً لنفسه:

إذا ذهبت نفسي بدنيا أصيبها   فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

أخي القارئ الحبيب: نجاني الله وإياك من كيد الفراعنة واغراءات الفراعنة واغواءات الفراعنة، وهداياهم فإنها السم الزعاف، وثبتنا جميعاً على دعوته ورزقنا جنته واكرمنا بكرمه وأجزل لنا المثوبة فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

المقالة الخامسة عشرة

التوكل على الله من أهم عوامل النصر على الطواغيت

لقد اجتمع السحرة وهم في غاية الحماسة، حتى ينالوا الأجر الفرعوني والمكافأة الفرعونية سواء كانت مالاً وفيراً وعطاءً جزلاً، أو الإنعام بالأوسمة والنياشين، أو تعيينهم في أرقى مناصب الدولة الفرعونية من إمارة، أو وزارة، أو قيادة، أو سلطان، أو زعامة.

والتقوا موسى – عليه السلام – وفرعون وهامان وقارون والملأ الكفرة من قوم فرعون يرقبون النتيجة، وهي نتيجة في غاية الأهمية بالنسبة لهم ولفرعون. فإمّا أن يترسخ أركان حكم فرعون في البلاد، أو أن يتزلزل هذا الحكم الفرعوني إن تغلب موسى عليهم، ولم يكن يخطر ببال فرعون غير هذه النتيجة. وكان حريصاً كل الحرص على أن يهزم السحرة موسى عليه السلام.

لقد بدأ التحدي من السحرة. وهذا التحدي يشعر أنهم على ثقة بالنصر والغلبة، وأن المكافأة الفرعونية تنتظرهم. فهم على أحر من الجمر في الأمر، وهم حريصون على أن يحسموا الأمر بأقصى سرعة ممكنة. فماذا كان موقف موسى عليه السلام؟

لقد واجه موسى – عليه السلام – التحدي بالتحدي. وزاد على ذلك بحرب نفسية شنها عليهم وأنهم المغلوبون لا محالة. فقال دون مبالاة لتحديهم وقد عرضوا عليه إما أن يلقي هو عصاه أو أن يلقوا هم عصيهم. سيان من البادئ فالنتيجة في ظنهم محسومة لصالحهم لكثرتهم ولاعتمادهم على فرعون وقوته. قال تعالى: ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين**﴾ [الاعراف: ١١٥] وفي سورة أخرى ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، قال بل ألقوا**﴾[طه: ٦٥، ٦٦].

لقد أجابهم موسى – عليه السلام – متحدياً أن يكونوا المتقدمين عليه بالقاء ما يريدون القاءه غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به.

لقد سارع السحرة في القاء حبالهم وعصيهم وأقسموا أنهم الغالبون، نعم إنهم أقسموا بعزة فرعون الطاغية، الذي تأله عليهم وادعى الربوبية، وقتل الأطفال وسفك دماء الرجال وأحيى النساء بلا أزواج بعد قتلهم. تأمل قوله تعالى: ﴿**فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبون**﴾ [الشعراء: ٤٤] تأمل الفاء في كلمة (فألقوا)فإنها تفيد التعقيب مع الفورية، فإنهم ألقوا ما ألقوا بسرعة فائقة دون تدبر أو روية فالعاطفة والهوى تسيرانهم وما علموا حقيقة الأمر، وتصريف الرب وقدره سبحانه.

إن السحرة اعتمدوا على غير الله وطمعوا فيما عند فرعون واعتزوا به. ولكن موسى عليه السلام يذكرهم أن السحر كفر وفساد، وأن الكفر باطل، وأن الذي سيبطل مكر الكافرين وباطلهم وفسادهم هو الله تبارك وتعالى: ﴿**ما جئتم به السحرُ إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون**﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

لقد ألقى موسى عصاه بأمر من ربه، فما هي إلاّ لحظات، وإذا بهذه العصا تنقلب أفعى عظيمة تهتز كأنها جان في قوتها وفي رعبها ومنظرها، فابتلعت العصي والحبال، فنظر السحرة وإذا بسحرهم يبطله رب موسى بعصا موسى. فما كان منهم إلاّ أن أيقنوا أن موسى – عليه السلام – وهارون صادقان في دعواهما، وأن فرعون طاغوت من الطواغيت مستكبر كذاب متجبر ليس بإله، وإنما الإله الحق هو إله موسى – عليه السلام –، فما كان منهم إلاّ أن سجدوا لله رب العالمين معلنين الاذعان والخضوع والتسليم والايمان بالله رب العالمين قال تعالى: ﴿**فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فأُلقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون**﴾ [الشعراء: ٤٥ – ٤٨]. إن فعلهم هذا في حقيقته كذب وافتراء ووهم وخيال لا نصيب له من الحقيقة أمام معجزة موسى عليه السلام.

أخي القارئ الكريم: أرأيت كيف تكون نتيجة التوكل على الله؟ أرأيت أثر قدرة الله؟ إن هؤلاء السحرة الذين جاءوا لتثبيت ملك فرعون هم الذين تخلوا عن فرعون وكفروا بألوهيته المزيفة وأعلنوا الايمان بالله والاستسلام لأمره سبحانه.

إن الدرس الذي نستنبطه في هذا المقام، أن الأنبياء واتباع الأنبياء وورثة الأنبياء يملكون الحجج الساطعة والبراهين الدامغة، وأن ما يملكه الطواغيت من وسائل ما هو إلاّ مجرد خيالات وأوهام يلعبون بعقول السذج من الناس. والطواغيت وعملاؤهم يقفون عاجزين أمام الدعاة لما يملكون من قوة الحق ونصاعة الحجة.

فأنت أخي الداعية صاحب حق، وحقك أبلج، وصدرك به لا يتلجلج. أمّا الطواغيت واتباعهم فلا يملكون سوى التهويش والخرافات والأوهام، ولن يقفوا في وجه حقك إن تمسكت به وأنت هازمهم لا محالة. كما هزم موسى عليه السلام فرعون من خلال سحرته وإذا هم يعلنون للملأ إيمانهم.

المقالة السادسة عشرة
مفهوم شرعية العمل الإسلامي عند الفراعنة

لقد انتهت المبارزة والمحاورة بتغلب فكرة الحق ودعوة الحق وأهل الحق على الباطل وأهله. وآمن السحرة برب موسى وهارون. وآمن مع موسى غير هؤلاء فئة قليلة من الشباب. قال تعالى: **﴿فما آمن لموسى إلاّ ذريةٌ من قومه على خوفٍ من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾** [يونس: ٨٣].

فماذا كان موقف فرعون من ايمان السحرة؟

لقد حدثنا القرآن عن موقف فرعون في آيات كثيرة في سورٍ متعددة،منها قوله تعالى: **﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيرُكُمُ الذي علمكم السحر فلأقطِّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنّكم في جذوع النخل ولتعلمُنّ أيّنا أشد عذاباً وأبقى﴾** [طه: ٧١].

إن المتأمل لهذا الموقف الذي حكاه القرآن تتضح له سياسة الفراعنة في الكذب والدجل واتهام الناس زوراً وبهتاناً، وإن كانوا قبل لحظة أو أقل هم انصاره وسدنة حكمه.

إن هؤلاء الذين جمعهم فرعون من كل مكان ليتغلبوا على موسى، وينتصروا لفرعون ويرسخوا حكمه، وجاءوا راغبين في تحقيق رغبته، وبخاصة عندما وعدهم بالأعطيات والأوسمة والنياشين وتقريبهم، ورفع منازلهم ودرجاتهم في نظامهم الطاغوتي ، وتحدوا موسى وأحاطوا الناس بالرهبة لما أبصروا الحقيقة وآمنوا بالله رب هارون وموسى وأنكروا ألوهية فرعون. يفتري فرعون الطاغية بحقهم فرية لا يقدر عليها إلاّ شيطان، وهي أنهم تلامذة موسى في السحر، وهم الذين تواطأوا – بزعم

فرعون الطاغية – مع موسى لإظهار أمره واثبات رسالته وصدق دعوته، وبطلان ألوهية فرعون وهجر عبادته، ومن ثم تشكيك المصريين في ألوهيته وهجرهم له، واتباع موسى – عليه السلام – الداعية إلى التوحيد والتحرير. لقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي:

أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق. قال ابن كثير: «وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل».

ويؤخذ من هذا أن هذا الأسلوب الفرعوني ليس محصوراً في فرعون موسى وإنما يمكن أن يتصرف نفس التصرف الفراعنة في كل زمان ومكان.

إن الذي يلفت النظر أن فرعون غضب واشتد وأرغى وأزبد، لأن السحرة آمنوا برب هارون وموسى، خرّوا سجداً أمام حقيقة الوحي دون أن يستأذنوه وينتظروا إذنه، فإن أذن لهم آمنوا وصدقوا بصائرهم وأبصارهم، وإن لم يأذن لهم بقوا على عمايتهم وضلالتهم وتأليه فرعون الكافر الفاجر الطاغية.

إن فرعون يشترط للايمان بالله رخصة رسمية من الحاكم، ومن ثم يشترط لمزاولة الدعوة إلى دين الله وتوحيده رخصة من الحاكم.

إن مما يؤسف له أن نرى في زماننا من ينادي بشرعية العمل الإسلامي، واستئناف الحياة الإسلامية، والعمل لدين الله من خلال قانون بشري بقيود توافق هوى البشر، ويطالب بالالتزام بهذا القانون في إقامة الحجة على الخلق والتبشير بدين الله. إنه نفس منطق فرعون مع السحرة حين آمنوا، إنهم خالفوا رغبة الملك الطاغية فرعون.

إن شرعية العمل لدين الله لا ترتبط برغبة حاكم أو طاغوت أو طاغية إن رضي وأذن، أصبح العمل لدين الله مشروعاً، وإن غضب ونفر ورفض، أصبح العمل لدين الله غير مشروع.

إن اعتناق عقيدة التوحيد والعمل لشريعة الله يستمد شرعيته من الوحي الرباني من القرآن الكريم. وهو ليس مشروعاً فحسب؛ بل هو واجب عيني على كل إنسان، هذا الواجب تكليف رباني ينبغي الامتثال له وطاعته وتنفيذه، ورفض كل ما تعارض مع هذا الواجب فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن هذا المنطلق الطاغوتي وجدنا في بلاد المسلمين من يبيح العمل السياسي لكل علماني وملحد وكافر بالله ورسوله، ويحظر العمل السياسي على المؤمنين بالله الموحدين به العاملين لتطبيق شريعة الله في الأرض. لأن القانون الطاغوتي قام على ابعاد دين الله عن الحياة، وحذر على اتباع الدين الاسلامي أن يعملوا على أساس عقدي وإيماني وديني.

لقد تعلم هؤلاء جميعاً من فرعون الطاغية، ونادوا بما نادى، وزادوا على ذلك بأنه لا دخل للدين في السياسة، ولا سياسة في الدين، مع أن الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ قد بلغّا وبيّنا أن لا خير في دين لا سياسة فيه، ولا خير في سياسة لا دين لها، بل إن السياسة التي لا دين لها هي سياسة كافرة، والسياسة التي لها دين هي السياسة الشرعية، لأن السياسة الشرعية تعني حمل الناس على مقتضى النظر الشرعي.

المقالة السابعة عشرة
الطاغية يتهدد ويتوعد

لما أعلن السحرة ايمانهم بالله تبارك وتعالى، وخروا سجداً له أنكر عليهم الطاغوت الطاغية فرعون وتهددهم وتوعدهم. وأعلن أنه سينكل بهم تنكيلاً شديداً، وبيّن صورة هذا التنكيل بأنه لن يكتفي بالقتل، وإنما سيمثل بهم ويشوههم ويعذبهم تعذيباً شديداً ينتهي إلى الموت. إنه أعلن أنه سيقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، حتى لا يكونوا قادرين على الحركة والهروب والكسب والسعي، فيموتوا صبراً بعد أن يقاسوا هذه الآلام. ويكابدوا هذه المتاعب، وسيعلقهم في جذوع النخل ليرهب بقية الشعب المستضعف، فإنه حين يرى هؤلاء المستضعفون، أنّ الذين آمنوا بالله رباً وتركوا ألوهية فرعون الزائفة،قد قطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلافٍ،وصلبهم على جذوع النخل، لأنهم وحدوا الله وعبدوه، سيثنيهم ذلك ويمنعهم من سلوك طريق الايمان واتباع السحرة في الايمان والتوحيد.

إن الذي يتأمل الآيات القرآنية التي قصت لنا قصة المبارزة والحوار، أن الناس اجتمعوا يوم الزينة ليحددوا موقفهم بعد نتيجة المبارزة وهي اتباع الغالب تأمل قوله تعالى: ﴿**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون، لعلّنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠].

لقد وقعت المبارزة فكان السحرة مؤمنين قد آمنوا برب موسى وهارون، والذي أفزع فرعون أن يقلد الناس المجتمعون السحرة فيؤمنوا برب موسى وهارون، ويتحرروا من ظلم فرعون وجبروت فرعون. ولهذا وقف كالمجنون غاضباً مزمجراً متهماً السحرة بالتواطؤ مع موسى ضده، ومهدداً السحرة الذين آمنوا بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، وكان يقصد إلى أمرين الأول ثني السحرة عن الايمان. وكف الناس كذلك عن الايمان، وإلاّ سينكل بالجميع بالسحرة وبكل من سلك طريقهم.

وهذا الأسلوب المتخلف المتوحش الذي يصادر الحريات ويقهر النفوس، لا زال في عالمنا المعاصر يستخدمه الطواغيت والفراعنة مع كل من يخالفهم في الرأي. وينتقد مواقفهم، ويرفض سلوكهم الفاسد المفسد. ويتأكد هذا الأسلوب ويمارس بأبشع صوره مع الدعاة إلى الله إن أعلنوا أنهم يدعون إلى الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، ويريدون أن ينقل إلى الواقع الحياتي للناس من خلال دولة اسلامية تسوس الناس بالعدل وتربيهم على التقوى، وتبث فيهم روح الجهاد والاستشهاد.

إن الطواغيت الفراعنة في القرن العشرين يمارسون هذه السياسة ويتصرفون هذا التصرف من منطق المحافظة على أنفسهم وعلى أنظمتهم المتخلفة وعلى مصالحهم وامتيازاتهم باسم القوانين التي يشرعونها، وباسم العدالة التي يتوهمونها ويوهمون الناس بها، وما هي إلاّ مجرد خداع وتضليل.

لقد عجز فرعون أمام السحرة في الدفاع عن ألوهيته، والدفاع عن ظلمه وبطشه وغطرسته. وعجز أن يثني السحرة عما هم فيه من الحق. فكان التهديد والوعيد بالقتل والصلب.

ونستنبط من هذا درساً في غاية الأهمية أن الطواغيت لا يملكون مجرد دليل أو شبه دليل على ما يدعونه من باطل. ولهذا فهم مهزومون أمام الدعاة في مجال الحجاج العقلي والحوار العلمي السليم، ولهذا نجدهم يلجأون إلى قوتهم وجبروتهم وسلطانهم ويستخدمون ما لديهم من جلاوذة وجنود للبطش بالمتنورين من شعوبهم، وسفك دماء الدعاة والمصلحين، فهل يؤثر هذا البطش والتهديد في نفوس الدعاة؟

المقالة الثامنة عشرة

الايمان يحرر أصحابه من الخوف

ذكرنا في مقالة سابقة أن فرعون الطاغية قد فوجئ بإسلام السحرة وتوحيدهم وسجودهم لله رب العالمين، واسلامهم لله رب العالمين، فجن جنونه، وفقد عقله، فأخذ يتهدد ويتوعد المؤمنين. فهل استجاب هؤلاء لتهديده، وهل خافوا من وعيده، وهل تراجعوا عن ايمانهم؟

إن القرآن الكريم ذكر لنا في أكثر من سورة ثباتهم على مبدأهم واستعدادهم أن يتحملوا القتل والصلب في جذوع النخل. فهذه الحياة الدنيوية لا تساوي عندهم شيئاً بالنسبة للدار الآخرة، والنعيم المقيم. قال تعالى: ﴿**قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى**﴾. [سورة طه ٧٢، ٧٣].

وفي سورة الشعراء: ﴿**قالوا لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين**﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١].

إنه موقف يستحق الإعجاب والتقدير، وتحول يستحق التدبر والتفكير، تحول حدث في لحظة أو هنيهة لا تعدل في مدتها غفلة عين وانتباهتها، ولكن الله تبارك وتعالى غير الأمور والنفوس من حالة إلى حالة، وحولها من نفوس كافرة فاجرة إلى نفوس مؤمنة عفيفة صابرة، حولها من نفوس متعلقة بالدنيا وطواغيت الدنيا، ولعاعة الدنيا التي يملكها الطواغيت وتمناها السحرة ووعدوا بها، إلى نفوس زهدت في الدنيا واستعذبت مفارقتها. واختارت أقسى طريق في المفارقة، إنه تحمل القتل وسفك الدماء.

إنه التحول والثبات على الهداية والحق، وعدم تقديم المنفعة الطارئة على

المصلحة الباقية والنعيم الزائل على النعيم الدائم في الجنة. جنة يغمس فيها الرجل من أشقى أهل الدنيا فيقال له: هل ذقت بؤساً قط فيقول: لا والله يا رب ما ذقت بؤساً قط، ويؤتى بأنعم رجل في الدنيا وأترف رجل، فيغمس في النار غمسة واحدة فتنسيه كل لذائذ الدنيا ومتعها وشهواتها الباطلة فيقول إجابة على سؤال سائل هل ذقت نعيماً قط: لا والله يا رب ما ذقت نعيماً قط. انهم عقلاء أدركوا طريق الجنة، طريق الثبات، وتحمل الأذى، طريق الأشواك. طريق مملوء بالآلام والعذابات ولكنه الطريق الوحيد للجنة، أخبر به رسول الله ﷺ حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

لقد أملى الظرف على السحرة أن يختاروا موقفاً، وهذا الموقف ولا شك موقف صعب يتطلب الحياة الدنيا، يتطلب سفك الدماء.

وإن الرجولة المنبثقة عن الايمان والتوحيد تقتضي من صاحبها أن يقف بجانب ما اختار، وأن يتحمل المسئولية كاملة نتيجة هذا الاختيار، وهكذا كان. لقد ثبتوا وتحدوا ولم يتراجعوا وقالوا: فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.

أيها الطاغوت الطاغية لن نفضلك على الهدى والايمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ونؤكد هذا الموقف بقسم بالله ربنا.

والذي أريد أن ألفت نظر القارئ الكريم: أنهم قبل هدايتهم وحينما كانوا سحرة لفرعون كانوا يقسمون بعزة فرعون. يا له من تقدير وتغيير. إن هؤلاء الذين ألقوا حبالهم وعصيهم قد أقسموا بعزة فرعون إنهم لغالبون نجدهم أنفسهم يرفضون الوهية فرعون، ويقسمون برب موسى وهارون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**والذي فطرنا**﴾ إنه قسم بالذي خلقهم وهداهم وهو الله تبارك وتعالى.

أخي القارئ الكريم: أرجو أن ألفت نظرك إلى أمور في هذا الدرس أو المقالة:أن المبادئ لا يحملها إلاّ الرجال الصابرون الثابتون. وأنه لا تهزم أعداءها إلاّ حين يعتنقها أنصار يضحون في سبيلها بالنفس والنفيس.

وأنت أخي المسلم مدعو في كل لحظة إلى أن تنصر دين الله وتؤثر دعوة الله على غيرها من الدعوات الأرضية، وأن تعمل جاهداً لإسقاط هذه الدعوات الأرضية، والافكار الوثنية والاصنام البشرية والحجرية، وأن تهييء نفسك وتصبرها على لأواء الطريق وعسرها وحرها ومرها.

المقالة التاسعة عشرة
تزكية النفس ثمرتها الجنة

لقد وقف السحرة الذين آمنوا موقف الثبات والتحدي لفرعون وبطش فرعون، وآثروا رضا الله على رضا فرعون، وتبرأوا من سحرهم الذي كانوا يستهدفون منه خدمة النظام الفرعوني، وابطال نبوة موسى وصدقه. وتعويق رسالته في تحرير الشعب المصري المستضعف المقهور المسخر لخدمة فرعون وو/زرائه وكبراء قومه.

وأعلنوا أنهم يستخفون بغضب فرعون ولا يأبهون له ولا يقيمون له وزناً في مقابل رضا الله وتجنب سخطه. وأعلنوا أيضاً أن عذاب الفرعون المصري في عهد موسى لا يقارن بعذاب الله. وهذا رد على تهديد فرعون بعذابه حين قال لهم بعد أن هدد بصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف: ﴿**ولتعلمنَّ أيّنا أشد عذاباً وأبقى**﴾ [طه: ٧١] فقالوا له: ﴿**والله خيرٌ وأبقى**﴾ [طه: ٧٣] أي والله خير منك ثواباً وأبقى عذاباً، فثواب الله دائم لا ينقطع، وعذاب الله دائم ما دامت السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿**فأمّا الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربك إنّ ربك فعالٌ لما يريد. وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذٍ**﴾ [هود: ١٠٦ – ١٠٨].

ولقد فصلت سورة طه ذلك وأكدته فجاء فيها: ﴿**إنه من يأتِ ربّه مجرماً فإنّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنّات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى**﴾ [طه: ٧٤ – ٧٦].

يا لها من جنة تجري من تحت غرفها الأنهار، وتجري من تحت سررها الأنهار،

وأنهار أي أنهار! أنهار من خمرة لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّى، وأنهار من لبن سائغ للشاربين، وأنهار من ماء زلال تتفجر من جبل من مسك. ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم. ونعوذ بالله من نار يسقى أهلها ماءً فيقطع أمعاءهم.

إن هذا النعيم لمن زكى نفسه كما قال تعالى: ﴿**وذلك جزاء من تزكى**﴾ والزكاة النمو والطهارة والتربية، ومن ذلك زكا الزرع نما وكبر، ومحمد زكى العرض طاهره.

وهذا درس للأخ القارئ الكريم، ينبغي أن يعض عليه بالنواجذ ولا يغفل عنه، وأن يسعى جاهداً ليل نهار لتزكية نفسه وطهارة قلبه، والإقبال على الطاعات والإكثار منها والكف عن المعاصي والهروب منها، ومن تزكية النفس: حملها على تعلم الحق والعمل بالحق ونشر الحق. والصبر على حمل الحق وما ينتج عن ذلك من عنت ومشقة. ومن التزكية:جهاد الشيطان والحذر من اغرائه وزحلقته بإثارة الشهوات والولوغ في المحرمات. وجهاد الشيطان والحذر من اغوائه بغرس التشكك والشك، فيفسد إيمانه ويعود إلى الكفر بعد أن هداه الله. ومن التزكية:جهاد الظالمين باليد واللسان والقلب، وجهاد الكافرين بالنفس والمال واللسان هذا هو طريق الجنة، طريق التزكية للنفس.

أخي القارئ الكريم: أننا في هذه الأنظمة الجاهلية التي تحكم بغير الاسلام. وتشرع للناس ما لم يأذن به الله ولا رسوله ولا صالح المؤمنين. وتضع قيماً جاهلية للناس في سائر علاقاتهم وفي أخص خصوصياتهم. إننا بحاجة إلى تزكية نفوسنا وتربيتها على المعاني الاسلامية، والقيم الايمانية، ومجاهدة هذه النفوس، ومجاهدة شياطين الانس والجن، ومجاهدة الظالمين والكافرين، حتى نكون من الناجين الذين طهروا قلوبهم ونفوسهم، وربوها على تقوى الله والرغبة في ثوابه، والرهبة من عقوبته، والحرص على النظر إلى وجهه الكريم. فيكون لنا جزاء من تزكى.

المقالة العشرون

مؤمن آل فرعون يستنكر التآمر على حياة موسى

لقد قدم موسى – عليه السلام – الآيات الدالة على نبوته ورسالته إلى فرعون وأعمدة الحكم عنده. ولكنه أصر على كفره وظلمه، وأخذ يتهدد موسى ويتوعده بالقتل بأسلوب خبيث ذكره القرآن في قوله: ﴿**وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدعُ ربه إنّي أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ [غافر: ٢٦] فالمتدبر لهذه الآية يلاحظ كأن أناساً يعارضون في قتل موسى – عليه السلام – وفرعون يريد قتله ولهذا فهو يطلب منهم أن يتركوه لينفذ جريمته، وأنه لن يقف أحد في وجهه لقتل موسى، وامعاناً في الكفر قال: وليدع ربه، أي ليناد ربه يخلصه مني.

وانما قال ذلك على سبيل الاستهزاء، وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرض فرعون أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله فيما مضى من أيام رعاية لقلوب أصحابه وسدنته وسدنة عرشه. قال أبوحيان: «والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات باهرة. وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتالاً سفاكاً للدماء لأهون شيء، فيكف لا يقتل من أحسن منه بأنه يثل عرشه، ويهدم ملكه؟ ولكنه يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه، وايهامهم أنهم هم الذين يكفّونه. وما كان يكفه إلاّ شدة الخوف والجزع».

ويلاحظ أنه لما أعلن فرعون أنه يريد قتل موسى طالباً ألاّ يقفوا في وجهه ويمنعوه من قتل موسى – عليه السلام – وقف رجل من جماعة فرعون وحزبه. قد آمن سراً. واتبع موسى – عليه السلام – يستنكر قتل موسى، ويتأكد هذا الانكار حين يكون السبب هو ايمان موسى وتصميمه على نشر عقيدة التوحيد والتحرير. ونبذ كل عقائد

الشرك ومظاهر الشرك والفساد قال: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾ [غافر: ٢٨] فهو تبكيت عليهم. فليس له جريمة سوى أنه آمن بالله تعالى، ووحده ودعا إلى توحيده وعبادته. وهو لم يقل شيئاً من عنده، بل هو مرسل من ربه وقامت الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على ذلك. ولم تحروا جواباً وأنتم تشهدون هذه الحجج.

واستمر مؤمن آل فرعون يحاورهم في رسالة موسى التي آمن بها، وصدق موسى عليه السلام بالايمان به وبرسالته. لقيام الأدلة النقلية والعقلية الدالة على رسالته، وعلى سبيل التنزل في مقام الخصم ومحاورته قال: ﴿**إن يكُ كاذباً فعليه كذبه وإن يكُ صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾[غافر:٢٨]. قال القرطبي رحمه الله: «لم يكن ذلك الشك منه في رسالته وصدقه. ولكن تلطفاً في الاستكفاف واستنزالاً عن الأذى». ومعنى قول القرطبي أنه أراد من فرعون أن يكف عن قتل موسى وترك أذاه.

أخي القارئ الكريم:

ألا يعجبك موقف مؤمن آل فرعون الذي آمن سراً ولم يعلم بإيمانه أحد، لمّا شعر بخطورة الجريمة التي أراد اقترافها فرعون وقومه – وهي قتل موسى – لم يطاوعه ايمانه أن يسكت عنها، بل انبرى يتصدى لهم منكراً عليهم فعلتهم القبيحة هذه. أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

هذا درس في غاية الأهمية يجب أن يتوقف كل مسلم عنده، درس نصرة المؤمنين إذا نيل من أعراضهم أو دمائهم، نصرة المؤمنين إذا تعرضوا لمؤامرات أعداء الله وأعداء رسوله.

إنه ينبغي على كل مسلم إذا جلس مجلساً وسمع فيه ما يؤذي الدعاة أن يقف كما وقف مؤمن آل فرعون يدافع عن الدعاة. ويخذل عنهم، ويدفع الأذى عنهم.

أخي القارئ الكريم: إن المجالس كثيرة لأهل الباطل. نعم هي كثيرة التي يكاد فيها للمسلمين، ويخطط فيها لتشويه سمعة الدعـاة المسلمين، سواء كان ذلك

بالحملات الاعلامية الظالمة، أو الإشاعات المفتراة، أو التواطؤ على إلحاق الأذى بهم، والتآمر على تصفيتهم، فالواجب الشرعي عليك أن تقف بجانب الدعاة، ويحرم عليك أن تسكت في مجالس المنكر هذه، وإن سكت فهو الخذلان المحرم قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». لا يسلمه لاعتداء المعتدين وإيذاء المؤذين هذا هو مؤمن آل فرعون أرضى ربه بالوقوف بجانب موسى – عليه السلام – فلم يسلمه بل نصره ودافع عنه.

المقالة الحادية والعشرون

يستحسن التلطف في الخطاب الدعوي

لقد وقف الرجل المؤمن من آل فرعون ينكر على آل فرعون والملأ من قوم فرعون قرارهم تصفية موسى – عليه السلام – وقتله. وفي هذه المقالة نرى أن هذا الرجل لم يقف منكراً فحسب؛ بل وقف محاوراً ومناظراً ومحذراً من مغبة الاستمرار في طريق الضلال والغواية وتأليه غير الله تبارك وتعالى. قال تعالى: **﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾** [غافر: ٢٩].

لقد خاطبهم الرجل الداعية بأسلوب لين رقيق في بداية الأمر، لعل قلوبهم تلين ولعل عقولهم تبصر وتدرك الحقيقة. ولعل عيونهم تصحو من غفوتها أو ترى من غشاها عن الحق. كان الأسلوب في المخاطبة: (يا قوم). إنه يشعرهم بهذا الخطاب الحريص على مصلحتهم، هذا الخطاب الشفيق الرقيق الرحيم بهم. يا قوم أنتم مني وأنا منكم. يوذيكم ما يؤذيني ويسركم ما يسرني، ويسعدني ما يسعدكم، ويؤلمني ما يؤلمكم، فمصيرنا والذي أرجوه واحد. فافتحوا عقولكم وأبصاركم وقلوبكم لما أقول.

لقد أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، وأول نعمة هي نعمة الملك. نعمة الحكم، حكم الناس والسيادة عليهم، ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ويشكروها، بإقامة العدل في الناس ودفع الظلم عنها، بل حكموا الناس بالقهر والاستعباد وسخروهم لمصالحهم الذاتية. ومن هذه السياسة القهرية قتل موسى – عليه السلام – لا لجريمة ارتكبها، وإنما لأنه يقول ربي الله. ونلاحظ أنه عرض الأمر عرضاً لا يوحي بالتحيز حتى يكون مؤثراً في هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون حديثاً. لقد سلك هذا الأسلوب ابتداءاً، طمعاً ورجاءاً، أن يقبلوا قوله وأن يستجيبوا لندائه فيتوقفوا عن ظلم المستضعفين وقتل الأطفال واستحياء النساء.

وإننا نلمس من خطاب هذا الرجل المؤمن من آل فرعون في قوله: ﴿**فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا**﴾ [غافر: ٢٩] التلطف في المخاطبة وإشعارهم أن مصيره ومصيرهم واحد، تأمل: ينصرنا، جاءنا، قال الفخر الرازي في تفسيره: «وإنما قال: (ينصرنا)، و (جاءنا) لأنه كان يظهر لهم أنه منهم. وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه».

لقد حذرهم من عذاب الله ونقمته إن هم استمروا في تكذيب موسى – عليه السلام – والكيد ضد موسى – عليه السلام – وأن هذا الانتقام سيكون مدمراً يقضي على سيادتهم وقوتهم ودولتهم في المنطقة.

حقاً لقد كان خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون موفقاً، أشعرهم بالمودة والحرص على مصلحتهم ودفع الأذية عنهم، ومن المنطق العقلي والمصلحي أن يكون مؤثراً فيهم، ولعله كان كذلك، ولقد فطن فرعون الطاغية إلى خطورة كلام الرجل المؤمن عليه وعلى حكمه فقاطعه وأكد موقفه من موسى – عليه السلام – وأنه هو الموقف الحازم الصحيح وهو قتل موسى والتخلص منه، فهو في ظن فرعون عامل فتنة وفساد كما جاء في قول فرعون من قبل: ﴿**إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ [غافر: ٢٦].

لقد أظهر فرعون الطاغية بخطابه لهم ومقاطعته لكلام الرجل المؤمن من آل فرعون حقيقته الفرعونية المستبدة التي تصادر عقول الناس وأفهام الناس، وتريد أن تذوب جميع العقول في عقله، وأن تتلاشى الآراء عندما يقول برأي، بل يجل عليها أن تلغي عقولها وتفكيرها وتهجر أي رأي لها وتقول بقوله وتنصاع لأمره، فكل ما يصدر عنه في زعمه هوالحق. فهو مبرأ من كل نقص وخال من كل هوى، فلا ينطق إلاّ حقاً ولا يقول إلاّ صدقاً.

تأمل قوله الذي حكاه القرآن: ﴿**قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩].

فماذا كان موقف الرجل المؤمن؟ هل سلم بما ادعاه فرعون لنفسه كما سلم السدنة لحكمه والمنتفعون بما عنده من دنيا ومناصب وسلطان؟

المقالة الثانية والعشرون
خطورة العقيدة على سيادة فرعون الغاشمة الباطلة

لقد أدرك فرعون خطورة الأفكار التي طرحها مؤمن آل فرعون فقاطع كلامه وأعلن لا رأي إلاّ رأيه، ولا قرار إلاّ قراره وهو قتل موسى – عليه السلام – وتصليب الذين آمنوا معه في جذوع النخل وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن الحوار ينبغي أن يحسم لصالح قراره وأن يتوقف عن إبداء غير رأيه وقراره، ﴿**قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد**﴾[غافر: ٢٩].

فهل استجاب مؤمن آل فرعون لهذا الأمر الفرعوني؟ وهل سكت في موضع الحاجة إلى بيان؟

إن القرآن يخبرنا أنه استمر في الحوار وسرد الحجج الساطعة والبراهين الدامغة على صدق ما يقول. ويتحدى فرعون الذي كان يرى أن يتوقف النقاش، وينتهي الرأي عند رأيه قال تعالى: ﴿**وقال الذي آمن يا قومِ إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد. ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصمٍ ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ [غافر: ٣٠ – ٣٣].

إن الآيات تدل بوضوح على أن الرجل المؤمن لم يستجب لرغبة فرعون ولم ينصع لقراره بقتل موسى، والتوقف عن مناقشة القرار الفرعوني الظالم، بل استمر يحذرهم بأسلوب شفيق رحيم. فهم لا زالوا قومه ولا زال حريصاً عليهم، يحب الخير لهم ويكره لهم الشر. فهو خائف عليهم وعلى مصيرهم المؤلم إن هم استمروا في طاعة فرعون وعبادته والسير في ركابه. يذكرهم عصائر الأمم الماضية والأقوام المكذبة للرسل، كقوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان بسبب كفرهم. وعاد الذين أرسل الله عليهم الريح العقيم ما

تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم وثمود الذين أهلكوا بزلزلة دكت منازلهم، وأهلكت حرثهم ونسلهم وجعلتهم أحاديث للناس. وحذرهم أيضاً من أمصار الأقوام الآخرين المكذبين، وأن هذه سنة الله التي لا تتخلف ولا تتوقف، سنة الله العادلة. العادلة في عقابها في الدنيا، العادلة في عقابها في الآخرة. فإن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً. تأمل قوله تعالى: **﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾** [غافر: ٣١] واستمر في الحديث بعد أن حذرهم من المصير المحتوم في الدنيا، يحذرهم من المصير المشئوم في الآخرة. يحذرهم بأسلوب رفيق رقيق من مغبة كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ومؤامراتهم المكشوفة التي تستهدف قتل موسى – عليه السلام – ومن آمن معه.

تأمل قوله: **﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾**. [غافر: ٣٢].

والتناد هو يوم القيامة. يوم الجزاء العادل، وإدخال أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وسمي يوم التناد لأنه ينادى في الخلائق وتظهر عظمة الله وجبروته. ولأنه ينادي أهل الجنة بعضهم بعضاً، وينادي أهل النار بعضهم بعضاً، وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أهل الجنة أهل النار. وينادي أهل النار خازن النار من الملائكة.

والتناد أيضاً مأخوذ من الفعل ند بمعنى هرب، ومنه ند البعير إذا هاج وتوحش وهرب فلا يرده أحد، وسمي يوم القيامة أيضاً يوم التناد؛ لأن الناس يفر بعضهم من بعض، يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ومن في الأرض جميعاً، ويبحثون جميعاً عن النجاة لأنفسهم فقط.

وهذا المعنى يدل عليه بقية الآية تأمل قوله تعالى:**﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**[غافر:٣٢، ٣٣].

أخي القارئ الكريم: هذا هو موقف الرجل المؤمن من آل فرعون موقف الثبات على المبدأ وموقف النصرة لأولياء الله، وموقف التحذير من عذاب الله في الدنيا والآخرة، موقف التحدي لفرعون الذي أراد أن يتوقف الناس عند رأيه وقراره: **﴿ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾** [غافر: ٢٩].

وأنت مدعو أخي القارئ الكريم إذا تعرضت لمثل ما تعرض إليه الرجل المؤمن من آل فرعون من طاغية جبار كفرعون، ألا تلين قناتك، وألا تهون عزيمتك، بل تستأنف الحوار، وتقدم الحجة تلو الحجة. وتخاطب الناس وتشعرهم أنك تريد انقاذهم من هلاك محقق يصيبهم إذا ساروا خلف الطغاة، كما حدث لفرعون والذين كانوا له اتباعاً وأذناباً، قال تعالى: **﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعونَ برشيدٍ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النارَ وبئسَ الورد المورود، وأُتبعوا في هذه لعنةً ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾** [هود: ٩٧ – ٩٩].

فماذا كان موقف فرعون بعد الحوار؟.

المقالة الثالثة والعشرون
مراوغة الطاغية فرعون

لقد حذر مؤمن آل فرعون آل فرعون، وفي مقدمتهم الطاغية فرعون، من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، بأسلوب المشفق الحاني عليهم، الناصح الأمين، الذي يحزنه حزنهم ويؤلمه ألمهم. وبخاصة هو، يعرف المصير المحتوم الذي ينتظرهم إن استمروا على ما هم عليه من الكفر والقهر والاستعباد.

وأمام هذا الحجاج العلمي الذي سلكه الرجل المؤمن بأسلوب موفق تدخل فرعون للمرة الثانية يريد قطع الحوار، وترسيخ الوهيته المفتراه المزيفة في قلوب الناس. مشككاً في صدق رسالة موسى – عليه السلام – جاحداً وجود الاله الحق، فاطر السموات والأرض. قال تعالى: ﴿**وقال فرعونُ يا هامانُ ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً، وكذلك زيّن لفرعون سوء عمله وصُد عن السبيل وما كيد فرعون إلاّ في تباب**﴾[غافر: ٣٦، ٣٧].

لقد جاءت هذه الآيات بعد أن أوضح الرجل المؤمن من آل فرعون نتيجة الذي يصر على باطله، ويتجاوز الحد في كفره وضلاله، وغارق إلى الأذقان في الفواحش والمعاصي وظلم الناس. قال تعالى: ﴿**كذلك يضلُّ الله من هو مسرفٌ مرتاب. الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم كبر مقتاً عندالله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبرٍ جبارٍ**﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥].

وأنت أخي القارئ تلمس الحزم والتصعيد في أسلوب الرجل المؤمن وبخاصة بحق أولئك المتكبرين والمجرمين الجبابرة الذين لا يفقهون شيئاً، ولا يملكون حجة أو شبه حجة على باطلهم وعلى ضلالهم، مما يستوجب غضب الله وسخطه ومقته لهم، ويستوجب كذلك كره المؤمنين لهم ومقتهم مقتاً كبيراً، ويستوجب اقفال

قلبه والختم عليه حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق. دائما وصف القرآن في الآية القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسدت كما أخبر الرسول ﷺ: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

واننا نلاحظ أن هذا الترقي والتصعيد في الحوار بالشواهد الدامغة لم تؤثر في فرعون وملأه شيئاً. بل أخذ يراوغ ليصرف أنظار الناس وعقولهم عن المنطق الصواب والحجة الدامغة التي ينطق بها الرجل المؤمن من آل فرعون.

وهنا يعود فرعون إلى المراوغة ومحاولة صرف أسماع الناس عن سماع حوار الرجل الصالح المؤمن من آل فرعون، حتى لا يستجيبوا لهذا النداء المنطقي السليم، وهذا النداء العاطفي المؤثر. فيتأثروا كما تأثر غيره.

لقد قال فرعون لوزيره هامان: «ابن لي قصراً شاهقاً وبناء شامخاً، لعلي أصل وانتهي إلى طرق السموات وما تؤدي إليها. فانظر إلى إله موسى وأشاهده بأم عيني، ولن أجد إلهاً سواي، ولن أجد الاله الذي يدعو إليه موسى. وتكون النتيجة التي توصل إليها فرعون، تشكيكاً في الفكرة التي دعا إليها مؤمن آل فرعون. قال أبوحيان: «وبلوغ أسباب السموات غير ممكن لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه. ولمّا قال: فاطلع إلى إله موسى كان ذلك إقراراً بالإله. فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله: ﴿**وإني لأظنه كاذباً**﴾» [غافر: ٣٧].

وكعادة الطواغيت الخبيثين في ابتداع أسلوب التشكيك بصورة في غاية الدهاء والخبث، أنه لم يقرر ما ادعاه على سبيل الحتم والجزم، وإنما ذكر ذلك على سبيل التشكيك ليثير الشكوك عند كل إنسان سمع مؤمن آل فرعون في دعوته إلى الايمان، وتحذيره من مغبة الكفر والطغيان. وإذا وصل الناس إلى مرحلة التشكك في وجود الإله الحق، انتهوا إلى حالة فقدان الثقة بكل ما يسمعون. وفقدان الثقة بكل من يتعاملون، وفقدان ثقة الناس بأنفسهم، إنه التشكك في كل شيء.

لقد أظهر الطاغية فرعون أنه غير مستيقن بوجود الله، وأنه بزعمه في سبيل البحث عن صحة ذلك، وأنه يظن أن لا وجود لله. وسيرى ما هي الحقيقة. كل ذلك ليستخف بعقول قومه ويوهمهم بما يريد.

أخي القارئ الكريم: إن الطغاة الفراعنة في كل زمان ومكان ينهجون هذا الأسلوب في التشكيك بدعاة الحق، وبالحق الذي يحملون، ويعملون جاهدين على تعميق وتعميم هذا الأسلوب، وهذه القاعدة قاعدة الشك حتى يتركوا الناس إلى اضطراب فلا هم في استقرار ولا هم إلى قرار، ومن ثم يبقى الناس يعيشون حياة العسف والظلم والقهر، ولا يثقون بدعوة الدعاة ولا يستجيبون لدعوات الاصلاح والتغيير. فلا تتغير الأحوال.

المقالة الرابعة والعشرون
مؤمن آل فرعون يدعو إلى رفض ألوهية فرعون

لقد ذكرنا سابقاً أن الطواغيت الفراعنة قديماً وحديثاً، يبتدعون أسلوب التشكيك في البدهيات والحقائق العقدية حتى يشيعوا عدم الثقة في الناس. ولا يثق جمهورهم بنفسه ولا بغيره من الدعاة المصلحين. فتبقى الأمور على ما هي عليه من الفساد والعفن وسوء الأخلاق. وهذا ما أراد أن ينتهي إليه فرعون موسى ويصرف الناس عن دعوة مؤمن آل فرعون.

إن مما لا شك فيه أن الطاغية فرعون قد زين له الشيطان هذا الأسلوب خادعاً إياه بأنه منتج ومؤثر في نفوس سامعيه، فتمادى في غيه واستمر في طغيانه. إلاّ أن هذا الأسلوب كانت نتيجته الهلاك والخسران المبين. حقاً إنه مكيدة من فرعون لكنها مكيدة فاشلة وخاسرة أودت به وبمن سار في ركابه. قال تعالى: ﴿**وكذلك زيّن لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلاّ في تباب**﴾ [غافر: ٣٧].

لقد خلص فرعون إلى دعوة المستضعفين المقهورين من أبناء مصر باتباعه والانقياد لأمره ورأيه وانكار ألوهية الله رب العالمين، وتكذيب رسالة موسى عليه السلام.

فما ذا كان موقف الرجل المؤمن من آل فرعون؟

لقد صعد التحدي والتصدي مع فرعون ومع أركان حكمه وأصحاب المصالح والمنتفعين من حكمه وظلمه. ورفض أن يتبع الشعب المصري الطاغية فرعون. بل وقف بكل وضوح يناديهم ويخاطبهم بأسلوب علمي عاطفي، حريص على مصيرهم واسعادهم في الدنيا والآخرة، يخاطبهم بكل صراحة لا تتبعوا فرعون فإنه يدعو إلى النار، ويطالبهم أن يتبعوه فإن في اتباعه انقاذاً لهم من ظلم فرعون ومن

هلاك محقق يجره إليهم فرعون. قال تعالى: ﴿**وقال الذي آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٣٨].

فطريق الطاغوت فرعون طريق الغواية، وطريق المؤمن من آل فرعون طريق الهداية السداد والرشاد.

واستمر مصراً في خطابه بوجوب اتباعه، مبيناً قيمة الدنيا في ميزان الله، وبالنسبة للآخرة، يخاطبهم بأسلوب شفيق رقيق رحيم مشفق على مصيرهم يريد الخير لهم، يا قوم، ويكرر هذه الكلمة في خطابه مشعراً إياهم بحبه ووده وحرصه على إنقاذهم. قال تعالى: ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار**﴾ [غافر: ٣٩].

هذه هي قيمة الدنيا: متاع: كلمة منكرة تفيد أي متاع، فليس متاعاً عظيماً دائماً وإنما هو متاع قليل زائل منقطع لا محالة، والحياة الآخرة هي دار الاستقرار والخلود والنعيم المقيم للمؤمنين فمتاعها دائم، وسعادتها أبدية.

وزيادة في ترغيبه في الايمان واتباع طريقه وهجر طريق الفساد طريق فرعون الطاغية يخبرهم بفضل الله وكرمه في محاسبة خلقه العصاة، ومكافأة الطائعين منهم، أن السيئة يجزي صاحبها بمثلها، وأن السيئة لا تتضاعف. ويخبرهم أن الإيمان والعمل الصالح طريق إلى الجنة. حيث فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿**من عمل سيئةً فلا يُجزى إلاّ مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب**﴾ [غافر: ٤٠].

أخي القارئ الكريم: لقد تضمنت هذه أساساً مهماً وركناً من أركان العقيدة، أن شرط قبول الأعمال الصالحة والمكافأة عليها هو الايمان، وأنه إذا فقد الايمان عند إنسان فلا ينفعه عمله في الآخرة. وإن تبرع بملايين الدنانير، وأصلح بين مئات الناس.

قال تعالى:﴿**ومن يكفر بالإيمانِ فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [المائدة: ٥]. وهذه الأعمال الممدوحة في الدنيا لا وزن لها في الآخرة وإن كانت كالجبال، قال تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً**﴾[الفرقان: ٢٣].

أخي القارئ الكريم: أرجو ألاّ تنسى موقف مؤمن آل فرعون في ثباته وتحديه لفرعون، وأرجو أن تقف موقفه من طواغيت الأرض الفراعنة في زمانك، فوق كل أرض وتحت كل سماء، وتكون واضحاً كل الوضوح، قوياً في حجتك، صادعاً بالحق دون تلجلج أو تردد. وألاّ تسكت بعد أن يتكلم الطواغيت حين يعتبرون كلامهم مسك الختام، وإن كان فيه السم الزعاف. وألاّ تكلّ ولا تملّ من قراع الطواغيت كما أحسست بذلك من مؤمن آل فرعون وحواره وحجاجه لفرعون.

المقالة الخامسة والعشرون
ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟

لقد حدد مؤمن آل فرعون لقومه طريق الجنة وطريق النار، وأعلن أن دعوة موسى – عليه السلام – التي يتبناها هذا الرجل المؤمن هي طريق النجاة، وأن طريق فرعون طريق الكفر بالله، والتأله على البشر وقهر البشر هي طريق الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهي طريق النار.

لقد حدد نتيجة دعوته ونتيجة دعوة الطاغية فرعون وأزلامه ووزرائه وسدنة حكمه. بقوله: **﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار. تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار، لا جرم أنّما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأنّ مردنا إلى الله وأنّ المسرفين هم أصحاب النار﴾** [غافر: ٤١ – ٤٣].

شتان بين دعاة النار ودعاة الجنة، وشتان بين دعاة النجاة ودعاة الهلاك، شتان بين دعاة الكفر ودعاة التوحيد. شتان بين دعاة الطواغيت والدعاة إلى العزيز الغفار.

إن الدعوة إلى الكفر بالله والشرك به في أي صفة من صفاته، وخصيصة من خصائصه، كادعاء الحاكمية لغيره دون سواه، وسؤال غيره دون سواه، أمر في غاية العجب ويدعو إلى العجب.

وإن الدعوة إلى ربوبية فرعون وألوهية فرعون وهو ليس بالرب ولا بالإله، في مقابلة دعوة التوحيد من مؤمن آل فرعون – دعوة الله الواحد القهار بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون. دعوة العزيز الذي لا يغلب، والواهب القوة والمنعة لغيره، ووليه الذي لا يضام ولا يهزم. دعوة الغفار الذي يغفر ذنوب خلقه، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويعفو عن هفواتهم،ويكرمهم بدخول الجنة – أمر يقضي منه العجب.

إنها دعوة إلى عباده من لا يستحق العبادة. فهو لا يصلح أن يعبد. لأنه لا يستجيب لنداء داعيه. ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة. والمرد بعد الممات ليس له، وإنما المرد إلى الله سبحانه، مردّ الناس جميعاً، كافرهم ومؤمنهم، طائعهم وعاصيهم، وسيجزي كل أناس بما اقترفت أيديهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وبخاصة الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والقتل والظلم والعسف والفسق والفجور والاستبداد والقهر. حقاً إن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار.

وأمام هذا البيان الشامل وهذه الحجج الدامغة والبراهين الساطعة، والتصعيد والتحدي لفرعون، ومحاولة فرعون أن يثني الرجل المؤمن عن دعوته، ومرواغته في صرفه عن المجاورة. واصرار مؤمن آل فرعون على إقامة الحجة عليه وعلى زبانيته وأركان حكمه، لم يطق فرعون هذا الموقف، ولم يطق الرأي الآخر، وصاحب الرأي الآخر، فتوعده وهدده بالقتل، لقد هدد مؤمن آل فرعون بالقتل لرأي رآه، ولعقيدة اعتقدها، فهل انهار مؤمن آل فرعون؟ وهل تراجع عما هو فيه من الايمان وثبات الجنان؟

لا، إنه وقف طوداً أشماً راسخاً لا يتزلزل قائلاً: ﴿**فستذكرون ما أقول لكم وأُفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصيرٌ بالعباد**﴾ [غافر: ٤٤].

هذا هوالموقف الايماني، يواجه التهديد بالتهديد، والوعيد بالوعيد، محذراً من مغبة كفرهم وضلالهم. فستذكرون ما أقول لكم، فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، أما تهديدكم فأواجهه بتفويض الأمر إلى الله، فهو بيده الأجل والنفع والضر، والحياة والموت ولا يملك ذلك أحد سواه قال تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كل شيءٍ قدير**﴾ [الانعام: ١٧].

أخي القارئ الكريم: إنك داعية إلى الله، ينبغي أن تقول الحق وتحمل الحق. وتعلم أن نتيجة ذلك التهديد والوعيد والأذى، فما عليك ألاّ تعد نفسك لذلك! وتلجأ إلى الله تبارك وتعالى تسأله العون والسداد. وأن تفوض الأمر إلى الله فهو وحده المثبت لك

على الحق، المعينك على الصبر. فالجأ إليه وفوض الأمر إليه، فإنك منتصر بإذن الله، وأكثر من استحضار هذه الآية كلما أحسست بمؤامرات الطواغيت وعملائهم. وكلما اشتد الكرب، وكثر شانئوك. وردد معي في كل حين من هذه الأحيان: ﴿**وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد**﴾.

المقالة السادسة والعشرون
نجاة مؤمن آل فرعون من بطش فرعون

لقد أفلس فرعون الطاغية المتأله من أي فكر يقدمه أو حجة يدافع بها عن الوهيته المزيفة التي يدعيها، وضاق ذرعاً بحجاج مؤمن آل فرعون، وهو يقدم الأدلة ويحذر الأمة، وينصحها نصح الناصح الأمين، ويحذرها تحذير الخائف المشفق المحب. وقرر في النهاية قتل فكرة الايمان بزعمه حين يقتل مؤمن آل فرعون. ولكن الله يغرس في قلب المؤمن به الشجاعة والجرأة، ويحرره من الخوف من غير الله عز وجل. فالخالق هو الله وحده، والرازق هو الله وحده، والمؤمن يتوكل عليه، ويفوض الأمر إليه، وهكذا كان. فهل استطاع فرعون المتغطرس أن يصل إلى هذا الرجل المؤمن؟ سمع القرآن يحدثك عن ذلك في قوله تعالى: ﴿**فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب، النّارُ يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدْخِلُوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

كانت النهاية والخاتمة نجاة مؤمن آل فرعون من مؤامرات فرعون وحاشيته. إذ وقاه الله تبارك وتعالى من مكرهم السيء الدنيء. وما أضمروه له من عذاب شديد وتنكيل، فنصره عليهم وأوقع بهم أسوأ العذاب، وهو الفرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، والعذاب الدائم بينهما في الحياة البرزخية. تأمل قوله تعالى: ﴿**النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً**﴾ [غافر: ٤٦]، والمراد بالنار هنا، نار القبر، وعذابهم في قبورهم بدليل قوله تعالى: ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦]، فملائكة العذاب تتولى زجرهم وادخالهم جهنم وتعذيبهم فيها عذاباً لا يطيقه أحد. وإذا كان جسم الانسان لا يقوى على أهون الحرارة فكيف نار وقودها الناس والحجارة؟.

أخي القارى الكريم: لقد انتهى هذا الصراع كما رأيت بين أهل الايمان وأهل

الكفر، إلى نتيجة سارة للمؤمنين ومحزنة للكافرين، نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين وتدميرهم كما قال تعالى: ﴿**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾ [الاعراف: ١٣٧].

لقد كان هذا نتيجة صبر المؤمنين وبخاصة مؤمن آل فرعون الذي ثبت وصبر، فكان له الظفر والنصر.

ويؤخذ من هذا: أن على الدعاة في فترة الضعف وقلة الأنصار ألاّ يتراجعوا في صراعهم مع أصحاب الصولة والجولة والدولة. وسييسر لهم الله من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم.

ويؤخذ من هذا: أن تتشبع نفوس الدعاة في فترة الاستضعاف بالأمل بالنصر، لأنهم يلجأون إلى ركن ركين وحصن منيع. إنهم يلجأون إلى مصدر العزة والمنعة ذلكم الله خالق كل شيء ومليكه. ﴿**تؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيءٍ قدير**﴾[آل عمران: ٢٦].

إن مما لا شك فيه أن الدعاة إلى الله يعيشون في زمان ذئاب مسعورة، ووحوش كاسرة في غابة يسودها الفوضى والاضطراب، ويحكم فيها مبدأ الغاب، وهم في هذه الغابة قليلو العدد والعدة، ضعيفون مستضعفون، فليس لهم والحالة هذه إلاّ الثبات والاستمرار على رسالتهم رسالة التغيير والتحرير، والله ناصرهم لا محالة حين تخلص نفوسهم من حظوظ نفوسهم، ويقدمون مبادئهم على مصالحهم.

وفي موقف مؤمن آل فرعون قدوة لهم في كفاءته العلمية. وقدرته الحجاجية وفصاحته ونصاعة حجته، وثباته وصبره، وتحديه للطاغية والطاغوت فرعون وزبانيته، حتى أهلك عدوه وأظهره عليه.

وصدق الله العظيم: ﴿**إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ [غافر: ٥١].

المقالة السابعة والعشرون
نقم الله تحيق بفرعون وأتباعه

تذكر الآيات القرآنية أن فرعون عليه اللعنة – لما طلب بيّنة من موسى على صدق رسالته، وأظهر العصا التي انقلبت أفعى عظيمة كأنها جان في قوتها، وكذلك أخرج يده من تحت ابطه فكانت بيضاء تتلألأ بعد أن كانت سوداء. ولكنه لم يؤمن هو وأركان حكمه وحاشيته. ولم يرسل من جاء موسى لتحريرهم من نيره من الشعب المصري.

إن موقف فرعون والملأ من قومه من رسالة موسى – عليه السلام – الذي اتسم بالرفض مع قيام البينات على صحة دعواه لم يكن نابعاً من روية واستخدام للعقل، والتدبر فيما يرى ويبصر من آيات ومعجزات، وإنما كان صادراً عن هوى وحب للزعامة وحرص على استمرارها. وحرص أركان نظامه على تأليهه حتى تبقى مصالحهم الذاتية في زيادة دون نقصان، ومراكزهم في علو دون سفل.

ومن هذا المنطق النابع من الهوى الذي يغوي ويصم ويعمي، أو صدوا أسماعهم عن سماع كل بينة جديدة وأغلقوا أبصارهم واستغشوا ثيابهم عن رؤية أي معجزة جديدة وتدبرها قال تعالى: ﴿**وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾ [الاعراف: ١٣٢].

أرأيت كيف وصل بهم الأمر من العناد والجحود والجمود أن يرفضوا مجرد التفكير في البينات التي سيقدمها موسى عليه السلام.

وأمام هذا العناد والاستكبار والجمود اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتليهم ابتلاء يبعثهم على التدبر والتفكر فيه لعلهم يتعظون وترق قلوبهم، فإن الشدة تجلب الانابة والخشية ورقة القلب، قال تعالى: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمراتِ لعلهم يذّكرون**﴾ [الاعراف: ١٣٠].

وكان من ذلك: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا مجرمين.

حقاً، إنها معجزات بدأت بالمطر الشديد الذي كون السيول العظيمة التي أغرقت المزروعات، وجرفت التربة، فهرعوا إلى موسى – عليه السلام – يسألونه ويستجدونه أن يدعو الله لمنزلته الرفيعة عنده وأن يرفع عنهم هذا البلاء، واستعدوا أن يؤمنوا به لقاء ذلك، وأن يستجيبوا لأمره في تحرير الشعب المستضعف في مصر. فدعا موسى – عليه السلام – ربه، فأذهب الطوفان وصلحت الأرض وأنبتت المزروعات وأخصبت، ولكنهم لم يؤمنوا ونكثوا العهد وأخلفوا الوعد، فأرسل الله تبارك وتعالى عليهم الجراد، يأكل المزروعات التي نبتت، ويأكل ثيابهم التي يلبسونها من كثرته، فهرعوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله أن يدفع عنهم هذا البلاء، وسيؤمنون به ويحققون مراده، فدعا الله فاستجاب له، ولكنهم كانوا مخادعين محتالين كذابين، فأرسل الله عليهم القمل (سوس القمح) فقد نخر ما بقي عندهم من حبوب في مخازنهم بعد آفة الجراد الزاحف الذي أكل الأخضر واليابس. وقيل القمل المعروف الذي ملأ أجسامهم وامتص دماءهم ونشر فيهم الأمراض، فهرعوا إلى موسى يستنجدون به أن يتضرع إلى ربه ليرفع عنهم هذا البلاء،مؤكدين أنهم سيؤمنون به ويصدقون رسالته ويتبعونه ويحققون مراده في تحرير شعبه، فرفع الله عنهم هذا البلاء ولكنهم خانوا العهد ونقضوه. فأرسل الله عليهم الضفادع ملأت بيوتهم ومزارعهم وأغذيتهم وغطتهم وهم نيام. غطت وجوههم وعيونهم ووقفت على أفواههم، فإذا فتح أحدهم فاه قفزت فيه.

وهكذا تكرر هذا الموقف منهم، موقف نكث العهد وأسلوب الخداع وعدم الوفاء بالوعود التي وعدوها، والمواثيق التي قطعوها لموسى على أنفسهم. في آية الضفادع والدم،حيث تحول كل ماء عندهم من بئر، أو عين، أو نهر، إلى دم إذا أرادوا شربه والطبخ به، مما نغص عليهم حياتهم.

أخي القارئ الكريم: إن هذه المعجزات وهذه النقم التي أصاب الله تعالى بها

فرعون وقومه، لم تؤثر في نفوسهم ولا في قلوبهم، بل كانت أقسى من الحجارة على قسوتها. إذ أصروا على الكفر والفسوق والفجور وسفك الدماء وقتل الأطفال واستحياء النساء. فكان القرار الرباني الانتقام العام والاهلاك لهؤلاء الكفرة الفجرة ناكثي العهد المكذبين للرسل، قال تعالى: **﴿فلمّا كشفنا عنهم الرجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** [الاعراف: ١٣٥، ١٣٦].

أخي القارئ الكريم: مما تقدم يمكننا أن نستنبط دروساً نستفيد منها كدعاة. ومن هذه الدروس، أن الهوى إذا استبد بصاحبه أعماه عن الحق واتباعه، وأن الفراعنة يرفضون الايمان خوفاً على مصالحهم. وأن الله تبارك وتعالى يظهر الكفار على حقيقتهم أنهم ناكثوا العهود والمواثيق، كذابون خداعون، ويمتد سفههم إلى أن يحاولوا مخادعة الله تبارك وتعالى، وأن الله تبارك وتعالى حين يمكن لهؤلاء بعض الوقت يستدرجهم في ذلك. فهو يمهل ولا يهمل. فقد أمهل فرعون وأركان حكمه ولم يهملهم. ففي النهاية أهلكه وأهلكهم. وإن الله ينصر أولياءه، ويخذل ويهزم أعداءه، والعاقبة للمتقين.

المقالة الثامنة والعشرون

فتية مؤمنون يقعون بين نارين!

لقد ذكر القرآن الكريم أنّ الذي آمن لموسى رجل من آل فرعون كان يكتم ايمانه فصرخ به في النهاية، وفاصلهم مفاصلة واضحة. وآمن مع موسى – عليه السلام – أيضاً السحرة الذين أقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلبون موسى ويثبتون الوهيته ويبطلون دعوة موسى ورسالته.

والقرآن الكريم أيضاً يخبر عن فئة ثالثة وهي من قوم موسى عليه السلام. وهؤلاء قد كانوا شباباً بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين، كما جاء في بعض كتب التفسير. قال تعالى: ﴿**فما آمن لموسى إلاّ ذريةٌ من قومه على خوفٍ من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإنّ فرعون لعالٍ في الأرض وإنّه لمن المسرفين**﴾ [يونس: ٨٣].

إن هذه الآية الكريمة تدل بوضوح أن هؤلاء الذين آمنوا ذرية – أي شباب – وهم من قوم موسى. وكانوا بين نارين، ويعيشون خوفين. الخوف الأول: من فرعون. والخوف الثاني: من ملأهم أي من قومهم.

أما الخوف الأول فواضح، فهو خوف من فرعون، وظلم فرعون، وبطش فرعون، وقد أعلن العقوبة لكل من آمن بقوله: ﴿**فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنكم في جذوع النخل**﴾ [طه: ٧١]، وهذه الفتنة شاعت وانتشرت في جميع أوساط الشعب المصري.

وأما الخوف الثاني: فهو الخوف من أكابر بني إسرائيل والمتقدمين في السن منهم. الخوف من فتنة هؤلاء والضغط عليهم، يطارد الكبار الصغار، ويطارد الآباء والأبناء.

إن هؤلاء الآباء الذين تربوا في نظام فرعون وشربوا كأس الذل حتى الثمالة، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً لفرعون يبذلون جهودهم وعرقهم من أجل ارضاء فرعون. يأتمرون بأمره وينتهون عند نهيه، وألفوا ذلك حتى أصبح سجية من سجاياهم وخصلة من خصالهم وعادة من عاداتهم المستديمة.

إنّ هؤلاء الآباء حين علموا أن أبناءهم قد أنكروا ألوهية فرعون ربهم وسيدهم وقاهرهم وناصبوه العداء وآمنوا برب موسى – عليه السلام – وهارون أخيه، فوحدوه ولم يشركوا به شيئاً وعبدوه ونبذوا عبادة فرعون، بل تمردوا على ألوهية فرعون. ماذا كان موقفهم؟

لقد جن جنونهم وأصابهم الذعر. لقد تخوفوا من ظلم فرعون، وبطش فرعون بهم بسبب ايمان أبنائهم وبأبنائهم كذلك. لقد عشعش في قلوبهم الخوف والرعب الفرعوني، فلا يملكون معارضته. وينكرون على أبنائهم كذلك. ومن ثم فالأبناء يتعرضون لفتنة أدوم من فتنة فرعون، وشرطة فرعون، وأجهزة فرعون. إنها فتنة الآباء والأخوات والأمهات والكبراء الذين يعايشونهم ويعيشون معهم تحت سقف واحد، وفي مجتمع واحد، يؤاكلونهم ويشاربونهم ويسامرونهم ويتسامرون معهم، وينامون معهم، ويقومون معهم.

حقّاً إنها لفتنة أشد على هؤلاء الشباب من فتنة فرعون الطاغية. فهي فتنة دائمة تلازمهم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار. من أقرب الناس إليهم. والأصل في هؤلاء الآباء لو تحرروا من الخوف من فرعون أن يقضوا بجانب أبنائهم الشباب الذين اختاروا رسالة التوحيد والتحرير من ظلم فرعون، وبطش فرعون، وفسق فرعون. ولكن هؤلاء لم يستجيبوا لآبائهم العبيد الخانعين وتمردوا على إرادتهم كما تمردوا على إرادة الطاغية فعاشوا أحراراً.

أخي القارئ الكريم:

إن الذي يعيش الأوضاع الجاهلية والأزمنة الفرعونية الجاثمة على صدور الناس

وتأخذ بخناقهم، يستخلص بسهولة ويسر أن هذا النوع من الفتنة والابتلاء ليس خاصاً بفرعون مصر، وليس خصاً بآباء الأبناء الذين تربوا على تأليه فرعون مصر، وأن هذا الأمر قد مضى وانقضى إلى غير رجعة. وإنما هذه الأوضاع الجاهلية إن سادت في زمان من الأزمنة تجعل الشباب المسلم الملتزم يعيش بين نارين، نار فتنة الفراعنة الطواغيت، ونار فتنة الأهل من آباء وأجداد وأمهات وأخوة وأخوات، تربوا في أحضان الطواغيت ووفق مناهجهم في كل شيء.

وإن كنت أنسى فلا أنسى شاباً أو أكثر كان في غاية الحيوية، متوقد الذكاء، يقظ الايمان، حي القلب، أبي النفس. مخلصاً كل الاخلاص لربه ولدينه ودعوته، قد جاء يشكو من ضغط أبيه وأهله وذويه. ويستغيث بعالم من العلماء ويستفتيه في أمر في غاية العجب، إن أباه يكره صلته الدائمة بالمسجد وبالشباب المسلم الملتزم، ويريد منه أن يهجر دار القرآن والمسجد، ويقاطع اخوانه من الشباب المسلم الملتزم. لأن ذلك يرتب مسئولية ومحاسبة ويوصد الباب في وجه مستقبله، وفي المقابل يريد منه أن يغير أصحابه وأصدقاءه، وأن يختار الأخلاء الخليين، ويوثق صلته بدور الفساد كالسينما وغيرها، محتجاً أن ذلك لا يعرضه للمسئولية ويفتح مستقبلاً باهراً وزاهراً أمامه.

ومما يؤسف له، أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل قد أقسم الأب الخانع الخاضع لعادات الجاهلية والأنظمة الجاهلية على أم ولده الشاب بالطلاق إن بقي ولده على التزامه وعلاقاته وآدابه الاسلامية وسلوكه السوي. وكان الولد مضطرباً غاية الاضطراب، خائفاً أشد الخوف، ويتوجس خيفة من طلاق أبيه لأمه. ويستفتي ماذا يفعل إزاء هذا الأب؟.

إن مما لا شك فيه أن بعض الآباء الذين تربوا في الأنظمة الجاهلية. قد عشعشت الجاهلية في أدمغتهم بقيمها وأخلاقها، وملأت قلوبهم خوفاً من طواغيتها. وقام هؤلاء بدورهم ينفثون في نفوس أبنائهم الخوف، ويضغطون على أعصابهم. ولكن هؤلاء الشباب لن تؤثر فيهم ضغوط الجاهلية على اختلاف صورها ودرجة شدتها، وستكون العاقبة لهم إن شاء الله.

المقالة التاسعة والعشرون

الترف وحب الزعامة يحجبان الاستجابة لنداء الإيمان

لقد أثبت موسى عليه السلام بالآيات المفصلات الألوهية لله تبارك وتعالى والتي جاء يدعو الناس إليها. ولكن الطاغوت فرعون أنكر ذلك ورفض الانصياع إلى الأدلة القاطعة مع بطلان ألوهيته وصدق ألوهية الله رب العالمين.

لقد تمادى فرعون في موقفه من الايمان بالله وتوحيده، ووراء هذا التمادي، العلو والاستكبار، فهو في زعمه التافه السفيه، أكبر من أن يؤمن بما جاء به موسى – عليه السلام – وأعظم من أن يكون من اتباع موسى – عليه السلام – فمن هو موسى حتى يكون تابعاً له؟ إنه نشأ في حجر فرعون ورباه. وفرعون ملك مصر الذي لا ينازع يملك أرضها وأهلها وخيراتها ومياهها. وهو طلق اللسان وموسى بزعمه عيي اللسان لا يكاد يعبّر عما في نفسه، ويجد السامعون صعوبة في فهم كلامه. ويتجاوز فرعون الحد في سوء أدبه مع موسى – عليه السلام – فيدعي أنه ضعيف حقير لا عز له، ولا جاه، ولا سلطان يشبه ملك فرعون وسلطانه.

ولقد حكى القرآن هذا الموقف في سورة الزخرف: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون، أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يبين. فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مقترنين**﴾ [الزخرف: ٥١ – ٥٣].

إن الذي يتأمل هذه الآيات يدرك استكبار فرعون وغروره ومراوغته في رفض الدلائل والبينات التي قدمها موسى – عليه السلام – ويحاول أن يصرف اهتمام المصريين عن دعوة موسى – عليه السلام – فالمقارنة بين ما يملك موسى – عليه السلام – من الدنيا وبخاصة مصر، وما يملك فرعون.

إن فرعون يفاجيء موسى – عليه السلام – ويفاجئ المصريين بإعنات شديد يطلبه من موسى – عليه السلام – وهو طلب على سبيل التعجيز لا على سبيل البحث عن الدليل. فإن ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات أكد ما طلب فرعون الطاغية، إنه طلب أن يلقي الله إلى موسى – عليه السلام – اسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوته، وأن تأتي الملائكة خدماً له يؤيدونه ويحرسونه ويصدقونه بما جاء به. وعادة أهل الجاهلية عند تتويج الفراعنة والظلمة والجبابرة حاكماً على الناس أن يسورروه بسوارين ويطوقوه بأطواق من ذهب أمارة على سيادته وزعامته وحكمه وتعظيماً له ليتعلق الناس به ويخضعوا لسلطانه.

إن هذا الأسلوب من فرعون صورة من صور مراوغته لاشغال الناس، وصرفهم عن سماع الحق وتدبره والانتفاع به.

أخي القارئ الكريم:

إن طلب فرعون هذا يدل على جحوده وفساد فطرته وعدم استعداده للإيمان، حتى ولو لبى الله طلبه وألقى على موسى – عليه السلام – اسورة من ذهب وطوقه بالذهب، كذلك وإن تنصيب الحاكم بإغداق الأموال الكثيرة عليه وإلباسه الذهب، يدل على أن حياة الطواغيت حياة ترف وسرف وتبذير، تتنافى مع أخلاق الأنبياء واتباع الأنبياء البعيدين عن الترف والسرف، لأن الترف طريق الشيطان. ومن خلق أولياء الشيطان. ولهذا فهو طريق التدمير **﴿وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾** [الاسراء: ١٦].

وإن ما يلفت النظر أيضاً أنه استطاع أن يؤثر على نفسية الشعب المقهور، فيردد أفراد الشعب كالببغاوات ما يقول.

ولقد استرعى انتباهي ما يجري من عادات أهل الجاهلية عند تنصيب حاكم من حكامها، أو إقامة عرس من أعراس أهلها، أو عيد من أعيادهم، إذ تسخر جميع وسائل الاعلام للنفخ فيه، ويلبس أحلى الحلل وأزهاها، وتفرش الأرض بالسجاد الوثير ليدوس

عليه، وينفق في سبيل ذلك من الأموال العامة ما تنوء به خزانة الدولة المثقلة بالديون.

فهل ما يجري من هذا السرف والترف يطعم الجياع أو يخفف من حدة الجوع ويواسي الأيتام والثكالى؟! إن شيئاً من ذلك لا يكون سوى هدر مقدرات الأمة وأموالها في سبيل تأليه طاغوت من الطواغيت.

وعلى الرغم من مراوغة فرعون واعناته فإن موسى – عليه السلام – ظل يدعوه وأتباعه إلى الإيمان ويصر على تحرير شعبه من الطغيان واستمر في دعوته لهم وتحذيرهم من مغبة الكفر وتكذيب الرسل، ولكن القلوب القاسية المغلقة لا تنفتح للحكمة ولا تتدبر العظة والعبرة.

المقالة الثلاثون

فرعون يحشد الجنود للفتك بالمؤمنين

لقد انتهينا في المقالات السابقة إلى أن فرعون الطاغية قد ركب رأسه وأصرّ على البطش بموسى – عليه السلام – والذين آمنوا معه من السحرة والشباب من قوم موسى – عليه السلام – وبيده السلطة والجنود، قال تعالى: ﴿**وفرعون ذي الأوتاد**﴾ [الفجر: ١٠]، فهؤلاء الجنود هم الذين يثبتون حكم الطاغية وأدواته في إرهاب الناس، وتعذيبهم والبطش بهم. قال أبوالسعود في تعقيبه على الآية: «وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم ولتعذيبه بالأوتاد».

لقد كان فرعون الطاغية متمرداً على الله تبارك وتعالى مدعياً الألوهية على الناس. ينكل بكل من حارب الشرك ودعا إلى تأليه الله تبارك وتعالى، وكان من صور تعذيبه لمخالفيه ومنكري ألوهيته: ربطهم في حر الشمس بالأوتاد دون طعام أو شراب.

أمّا في هذه الحالة حينما رأى اصرار موسى – عليه السلام – والذين آمنوا معه على موقفهم، فقد قرر استئصاله وحشد جنوده لذلك. وكانوا جميعاً على عداء مع أهل التوحيد، قد ملأ الكبر قلوبهم ونفوسهم قال تعالى: ﴿**واستكبر هو وجُنُودُهُ في الأرض بغير الحقِّ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون**﴾[القصص: ٣٩].

والذي يلفت النظر أن الجنود ليسوا مكرهين في عداء الحق وأهله، بل هم متحمسون حماس فرعون الطاغية واستكباره. نتيجة تضليلهم واغوائهم واغرائهم لكثرة ماله وجبروته.

إن الذي يدقق النظر في حالة فرعون النفسية والعصبية التي أخذت تلازمه بعد قهر موسى – عليه السلام – السحرة والايمان بالله، وكذلك ايمان مؤمن رجل من قوم

فرعون بالله وبرسالة موسى والدفاع عنه والدعوة إلى نبذ ألوهية فرعون، يجد أن فرعون كان متضايقاً جداً وإن كان يواجه الأمر متكلفاً بالصبر والاستهزاء والتهكم والسخرية والاستخفاف. إلاّ أنه كان في شدة الغيظ من هذه القلة المؤمنة وشدة الخوف على ملكه منها. تأمل قوله تعالى: ﴿**فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين. إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنّهم لنا لغائظون. وإنّا لجميعٌ حاذرون**﴾[الشعراء: ٥٣-٥٦].

إن فرعون تراه في هذه الآيات يقلل من شأن موسى - عليه السلام - والذين اتبعوه من المؤمنين فيصفهم بالشرذمة القليلة، ومع تهوينه لهم فقد أظهر خوفه وفزعه منهم، وغيظه عليهم لأنهم على قلتهم رفضوا الوهيته واختاروا طريق التحرير من استرقاقه. ومع هذا فهو حذر حذراً شديداً من تأثيرهم، ولهذا فهو يطاردهم ويضيق عليهم الخناق في كل قرية يسكنونها. وفي كل حارة يقيمون فيها، فجنوده على أهبة الاستعداد، وقد حشدهم في كل قرية يُطاردون المؤمنين ويحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم.

أخي القارئ الكريم:

عند تأملنا وتدبرنا لما تقدم من أقوال فرعون وتصرفاته هو وجنوده، نستنبط مدى تأثير الفكرة السلمية وأصحابها - ولو كانوا قليلين في عددهم - في نفوس الطواغيت أمثال فراعنة مصر والفراعنة عموماً قديماً وحديثاً.

وإن مما لا شك فيه أنك عشت في زمان كانت الأنظمة الجاهلية ولا تزال تصف الدعاة إلى الله الذين يعملون في الحركة الاسلامية لاستئناف الحياة الاسلامية، وإقامة الدولة الاسلامية وهي تحاربهم بجميع وسائل اعلامها، وتزج بهم في غياهب السجون، وتذيقهم سوء العذاب وتؤذيهم أشد الأذية، ومع هذا تجد سدنة هذه الأنظمة وأبواقها الاعلامية، يصفون هؤلاء الدعاة الجبال بأنهم حفنة من الناس، وأحياناً بنفس عبارة فرعون الطاغية. إنهم لشرذمة قليلون، وأقول: إذا كان هؤلاء شرذمة قليلة وبزعم الفراعنة أنها قليلة التأثير في الكثرة الكاثرة، بل لا وزن لها في هذه الكثرة، فلم التخوف إذاً منها؟!

إن مما لا شك فيه أن هذا الأسلوب له أثره النفسي على الناس العاديين، حين يحشد الطغاة الفراعنة زبانيتهم وجنودهم للبطش بالقلة المؤمنة التي لا حول لها ولا طول، بعد أن يمهدوا لهذا البطش بوسائل اعلامهم للتهوين من شأنهم وتحقيرهم ومن ثم عدم التأثر على قتلهم ظلماً.

إن الذي أغاظ فرعون مصر قديماً وفراعنة القرن العشرين حديثاً من الحركة الإسلامية: أنها كشفت حقيقتهم وأنها تسعى لتغييرهم، ومعها من الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ما تقنع الناس بصواب فكرتها وسلامة موقفها، وبخطأ الفراعنة وخطيئتهم وجهلهم ووجوب تغييرهم. وهم يحسون بهذا التأثير ويستميتون في وقفه والقضاء عليه. ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المقالة الحادية والثلاثون
موسى يسلك سبيل النجاة

لقد اتضحت فكرة موسى وانتشرت بين الناس وبخاصة المستضعفين منهم، وبقي فرعون على كفره وجحوده، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى أن يخرج بالذين آمنوا من هذه البلدة مصر التي تأله فيها فرعون وسفك دماء الأبرياء والأطفال. وحدد له الله تبارك وتعالى وقت الخروج منه بأن يكون في الليل وعلى الأدق في هزيع الليل الأخير. وحيث تكون عيون الرقباء من الظلمة وجواسيسهم قد أرهقها السهر. وغطت في سباتها العميق. قال تعالى: ﴿**ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي**﴾ [طه: ٧٧]، الإسراء: المسير ليلاً.

لقد تجمع الذين آمنوا بموسى من كل أقطار مصر والتفوا حول موسى، وخضعوا لقيادته، وساروا جميعاً يتقدمهم موسى – عليه السلام – ولما علم الطاغية فرعون بمسيرهم حشد جنوده من بلدان مختلفة، وقادهم بنفسه وتبع موسى – عليه السلام – والذين معه يريد إعادتهم إلى مصر، ومن البدهي أنه سيسومهم سوء العذاب، وسينكل بهم أشد تنكيل، لأنهم أنكروا ألوهيته، وتمردوا عليه، وخضعوا وانقادوا لموسى – عليه السلام – يوالونه ويتبرأون من فرعون الطاغوت.

لقد اقترب فرعون بجنوده من موسى والذين آمنوا معه، وخرجوا يريدون النجاة. فكان هذا باعثاً للذين كانوا مع موسى على الانزعاج والاضطراب، إذ خافوا على أنفسهم واستغاثوا بموسى – عليه السلام – فأنكر موسى عليهم خوفهم وشكهم قال تعالى: ﴿**فأتبعوهم مشرقين، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون، قال كلاّ إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فرقٍ كالطود العظيم، وأزلفنا ثَمَّ الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين**﴾[الشعراء: ٦٠ – ٦٥].

لقد كان موسى – عليه السلام – في حالة نفسية تغاير كلياً حالة الذين معه، لقد كان في غاية الاستقرار النفسي، في حين أنهم كانوا مضطربين خائفين من بطش فرعون، غير ذاكرين لقدرة من هو أكبر من فرعون وأقدر من فرعون خالق السموات والأرض وما بينهما إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون.

ومن منطلق الاستقرار النفسي الذي ولده الايمان في قلب موسى ونفسه لم ينزعج من قرب الطاغوت فرعون وجنوده منه، ولم يربكه خوف الذين معه من الهلاك على يد فرعون إذا ظفر بهم، بل كلمهم بحزم وزجرهم على هذا الظن السيء، واهمالهم جانب القدرة الالهية، فقال: ﴿**كلا إن معي ربي سيهدين**﴾ [الشعراء: ٦٢].

إن معية الله التي يستشعرها موسى سكبت في قلبه الأمن والأمان، والاستقرار والقرار الأمين المكين.

لقد صدر الأمر الإلهي لموسى – عليه السلام – الذي استشعر معية الله له. وذكر اتباعه بهذه المعية. وأن الله لن يمكن فرعون وجنوده منه ومن أتباعه، وأنه سيهديه إلى طريق النجاة والخلاص. وسينصره على عدوه وعدوهم لا محالة. قال الرازي رحمه الله: «قوى نفوسهم بأمرين: أحدهما أن ربه معه، وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة والثاني: قوله سيهدين أي إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة».

لقد قذف الله في قلب موسى أمره ووحيه بأن يضرب بعصاه المعهودة التي ابتلعت جميع عصي السحرة وحبالهم وأبطلت سحرهم، أمره أن يضرب بها البحر، فلم يتردد في تنفيذ الأمر بل بادر على التو بتنفيذه، فانفلق البحر بهذه الضربة إلى اثني عشرطريقاً، وجمد الماء فأصبح كالجبال الصلبة، وأصبحت أرض البحر يابسة ميسورة للمسير، فلا وحل يعيق السير، ولا برد يقتل الأجسام، لقد ساروا في جو عادي مريح، حتى قطعوا البحر ووصلوا إلى اليابسة ناجين لم يمسسهم سوء، قال تعالى: ﴿**ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخافُ دركاً ولا تخشى**﴾ [طه: ٧٧].

أخي القارئ الكريم:

مما تقدم يمكن أن نستخلص فوائد جليلة منها: أن الله تبارك وتعالى لا يسلم أولياءه لأعدائه، وأن عقيدة الايمان تحرر النفس من الخوف والقلق على النفس وغيرها، وأن الله تبارك وتعالى يحمي أولياءه وينصرهم وييسر لهم من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم، كما هو هنا في ضرب البحر بالعصا، وأن العاقبة في النهاية للثابتين على طريقهم طريق الحق.

وما أحوج الشباب المسلم اليوم إلى أن يثق بدعوته، ويثق بما عند ربه من النصر وتوفير اسبابه، قال تعالى: ﴿**وما النصر إلاّ من عندالله إن الله عزيزٌ حكيمٌ**﴾ [الانفال: ١٠].

ويجب أن يؤمن الداعية إيماناً لا يخالجه أدنى شك أن الله ناصر المؤمنين وهازم الفراعنة وجنودهم المجرمين إن عاجلاً أو آجلاً.

ويجب أن يستشعر الدعاة معية الله لهم، وإن كانت الطريق موحشة، فإن المعية تؤنس القلوب والنفوس، وتشعر بالعزة والقوة. كما تشعر بغاية الهدف ونبله وتشعر باستمرار المراقبة الدائمة لله لنيل رضاه والفوز بجزيل ثوابه في الدنيا والآخرة.

المقالة الثانية والثلاثون
فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية

لقد ذكر سابقاً أن موسى – عليه السلام – ومن معه قد اجتازوا البحر، بعد أن شق موسى بعصاه اثني عشر طريقاً يابسة، وأن فرعون كان على أثرهم يريد ردهم إلى مصر والبطش بهم وتعذيبهم فماذا كانت نتيجته وهل حقق غايته في مسعاه هذا؟

إن الآيات القرآنية في أكثر من سورة في القرآن الكريم تخبرنا أن فرعون لما وصل إلى البحر، ووجده طرقاً يابسة، وتقدم هو وجنوده وساروا فيه ليلحقوا بموسى والذين آمنوا معه، ويثنوهم عمّا هم فيه. ولما توسط فرعون وجنوده في البحر وخرج موسى ومن معه من البحر أمر الله تبارك وتعالى البحر، فأطبق عليهم وأغرقهم جميعاً بما فيهم فرعون عليه اللعنة وأصبحوا أحاديث للأمم والأفراد.

قال تعالى: ﴿**فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأضل فرعون قومه وما هدى**﴾ [طه: ٧٨، ٧٩].

قال تعالى: ﴿**واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقِّ وظنُّوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنودَهُ فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿**فدعا ربه أنّ هؤلاء قومٌ مجرمون. فأسر بعبادي ليلاً إنّكم متّبعَون، واترك البحر رهواً إنّهم جندٌ مغرقون، كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ**﴾ [الدخان: ٢٢ – ٢٦].

هكذا كانت نتيجة الطاغية فرعون الذي تأله في مصر، وهكذا كانت نتيجة الذين ألهوه ورسخوا ملكه وكانوا سدنته وجنوده. لقد نبذهم الله نبذاً، وأين نبذهم في البحر فكانوا طعاماً لحيوانات البحر، إلاّ جثة خبيثة قضى الله تبارك وتعالى أن يلفظها ماء البحر لفظاً على الشاطئ، هذه الجثة، جثة الطاغية المعربد الظالم

الفاجر سفاك الدماء قاتل الأطفال. ولقد تحدثت سورة يونس عن هذا المشهد. قال تعالى: ﴿**وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين، فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ [يونس: ٩٠ – ٩٢].

لقد قضت كلمة الله تبارك وتعالى أن يهلك فرعون وجنوده، فأغرقه وأغرقهم، إلاّ أنه لما رأى الموت بعينيه أدرك أنه ليس بإله، وأن الإله الحق هو إله موسى الذي دعا فرعون إلى الإيمان به، وخر السحرة سجداً له مؤمنين به، وآمن به مؤمن آل فرعون، وآمن به شباب من قوم موسى لم يتأثروا بضغط أهل الجاهلية سواء كانوا من جهة آبائهم وأمهاتهم أو من جهة الطاغية.

ولقد انطقه الحال فقال: «آمنت أن لا إله إلاّ الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» فلم يقبل الله منه هذا الايمان ولا هذه التوبة، لأن الإيمان في ساعة الغرغرة وخروج الروح لا يقبل، والتوبة كذلك في هذه الحال لا تقبل. قال تعالى في ذلك: ﴿**وليست التوبةُ للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفارٌ**﴾ [النساء: ١٨].

ولهذا أنكر الله عليه ذلك ولم يقبل هذا الاعتراف المبني على القهر والغلبة واليأس من الحياة: ﴿**الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين**﴾ [يونس: ٩١]

لقد كان باب التوبة مفتوحاً أمام فرعون قبل الغرق، وكان موسى وهارون ومؤمن آل فرعون يقدمون له الأدلة والبراهين، ولكنه كان معانداً كفاراً يرفض ويراوغ كما علمت في المقالات السابقة، أمّا الآن فقد أوصد الله باب التوبة أمامه.

أخي القارئ الكريم:

إنه مما لا شك فيه أن القصص القرآني يقصه الله على رسوله وعلى المؤمنين ليعتبروا ويتعظوا. وفي قصة هلاك فرعون ونبذ جسده من البحر حكمة بالغة يغفل

عنها كثير من الناس. قد حدثنا الله عن هذه الحكمة أن يتعظ الطواغيت الفراعنة بعد فرعون بما جرى لفرعون. وطواغيت زماننا لن يصلوا إلى ما وصل إليه فرعون من كثرة المال والانصار والجنود والجبروت. وها هو ذا فرعون جيفة قذرة تلقى على الشاطئ فلا يعبأ بها أحد، ولا تخيف أحداً، ولا تنفع صاحبها ولا تنفع سدنتها.

إن الفراعنة في كل زمان ومكان مدعوون لأخذ العبرة مما حدث لفرعون حينما تأله في الأرض وسجن كل من لا يسلم له بالألوهية، عليهم أن يحذروا الظلم والفسق والفجور والتأله في الأرض على الناس، وتعبيد الناس لهم من دون الله.

عليهم أن يذكروا نتيجة فرعون ويتذكروها دائماً، وأن يغتنموا فرصة باب التوبة وهو مفتوح قبل أن يغرقوا إلى الأذقان في الكفر والمعاصي ويموتوا وهم كذلك.

على أتباع الفراعنة أن يتعظوا بما حدث لجنود فرعون، وأن فرعون لم يدفع الهلاك عن نفسه ولم يدفعه عنهم، عليهم أن يتبرأوا من كل فراعنة الأرض قبل فوات الأوان.

كتب للمؤلف

١- النظام السياسي في الاسلام.

٢- القضاء في الاسلام.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- أسس في التصور الاسلامي.

٥- حكم الشورى ونتيجتها في الاسلام.

٦- الشورى وقضايا الاجتهاد الجماعي.

٧- القضاء بشاهد ويمين.

٨- أحكام الذبائح في الاسلام.

٩- الايمان والنذور.

١٠- حكم الذبائح المستوردة إلى بلاد المسلمين.

١١- الإسراء والمعراج.

١٢- الهجرة النبوية.

١٣- غزوة بدر.

١٤- غزوة أحد.

١٥- غزوة الأحزاب.

١٦- غزوة الحديبية.

١٧- غزوة الفتح الأعظم.

١٨- غزوة حنين.

١٩- الصراع مع اليهود الجزء الأول.

٢٠- الصراع مع اليهود الجزء الثاني.

٢١- الصراع مع اليهود الجزء الثالث.

٢٢- الصراع مع الصليبيين.

٢٣- ثلة من الأولين.

٢٤- تفسير سورة الأنفال.

٢٥- تفسير سورة الحجرات.

٢٦- شهداء فلسطين.

٢٧- القاضي أبويعلى الفراء وكتابه الاحكام السلطانيه.

٢٨- أسس في الدعوة ووسائل نشرها.

٢٩- ارشادات لتحسين خطبة الجمعة.

٣٠- مؤتمر مدريد في الشرع والعقل.

٣١- المدرسة النبوية العسكرية.

٣٢- فقه الإمام البخاري.

٣٣- منهج الحركة الاسلامية في التغيير.

٣٤- المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية.

٣٥- الابتلاء والمحن في الدعوات.

٣٦- انفاق الزكاة في المصالح العامة.

دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
مقابل وزارة التربية والتعليم
هاتف: ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - فاكس: ٦٢٨٣٦٢
ص.ب: ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن
مكتبة دار الفرقان - فرع إربد مقابل جامعة اليرموك
هاتف: ٢٧٦٥٠٦